حروف حرة

مجموعة قصصية متنوعة

لكُتّاب الفئة العمرية الصغرى

الطبعة الأولى - ٢٠٢٠

إصدار: مبادرة ض

DADD-INITIATIVE e.V

حروف حرة

حروف حرة (مسابقة ض)

مبادرة ض، الطبعة الثانية، مايو 2023م

مُعرِّف الكتاب الداخلي:DADD/2020/SS01

يضم الكتاب القصص المختارة من لجنة التحكيم المختصة ضمن مسابقة حروف حرة لكتابة القصة القصيرة عن الفئة العمرية الصغرى (17 عاما فما دون)، التي نظمتها مبادرة ض التطوعية في عام 2020.

مبادرة ض – مؤسسة تطوعية غير ربحية – ألمانيا

رقم التسجيل الوطني: 7276

البريد الإلكتروني: board@dadd-initiative.org

الموقع الإلكتروني (بالعربية): www.dadd-initiative.org

الهاتف: 94570403 160 49+

هذا الكتاب مُرخص تحت رخصة: نَسب المُصنَّف - غير تجاري - منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0). [1] لك مطلق الحرية في:

المشاركة، أي نسخ وتوزيع ونقل العمل لأي وسط أو شكل.

لا يمكن للمرخِّص إلغاء هذه الصلاحيات طالما اتبعت شروط الرخصة التالية:

- نَسب المُصنَّف أي نَسب العمل لصاحبه بطريقة مناسبة، وتوفير رابط للترخيص، وبيان إذا ما قد أُجريت أي تعديلات على العمل. يمكنك القيام بهذا بأي طريقة مناسبة، ولكن على ألا يتم ذلك بطريقة توحي بأن المؤلف أو المرخِّص مؤيد لك أو لعملك.
- غير تجاري: أي أنه لا يمكنك استخدام هذا العمل للأغراض التجارية أو الربحية.
- منع الاشتقاق — إذا قمت التعديل، التحويل، أو البناء على هذا العمل، لا يمكنك توزيع المواد المعدلة.
- منع القيود الإضافية — يجب عليك ألا تطبق أي شروط قانونية أو تدابير تكنولوجية تقيد الآخرين من ممارسة الصلاحيات التي تسمح بها رخصة هذا الكتاب.

Free letters (DADD competition)

DADD-INITIATIVE e.V, second edition, May 2023

Internal book ID: DADD/2020/SS01

The book includes the stories selected by the competent jury within the "Free letters" short story competition for the younger age group (17 years and under), organized by DADD-INITIATIVE e.V in 2020.

DADD-INITIATIVE e.V – NonProfit Organization – Germany

Court Registration Key: 7276

Email: board@dadd-initiative.org

Web: www.dadd-initiative.org

Phone number: +49 160 95470403

This book is licensed under attribution-noncommercial-noderivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0) [1]. You are free to:

Share: copy and redistribute the material in any medium or format

The licensor cannot revoke these freedoms as long as these terms are followed:

- Attribution, you must give appropriate credit, provide a link to the license, and indicate if changes were made. You may do so in any reasonable manner, but not in any way that suggests the licensor endorses you or your use.
- NonCommercial: you may not use the material for commercial purposes.
- NoDerivatives, if you remix, transform, or build upon the material; you may not distribute the modified material.
- No additional restrictions — you may not apply legal terms or technological measures that legally restrict others from doing anything the license permits.

Link to the license/رابط الرخصة

[1]: https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

ملاحظة: صورة الإطار لعناوين القصص تتبع لموقعpngimage.net ، مع أحقية الاستخدام بشرط ذكر المصدر.

Note: the image used for titling the sections belongs to pngimage.net, with usage release by attribution.

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يصدر لولا الجهود التطوعية الخالصة من فئات وأفراد رائعين، ضحوا بأوقاتهم الثمينة خدمةً للغة العربية ومحتواها الأدبي.

للجنة التحكيم، ممثلةً بكل من المتطوعين الأفاضل، نقدم خالص الشكر والتقدير للعمل الدؤوب على تقييم القصص المشاركة وفق معايير علمية متعارف ومتفق عليها.

أعضاء لجنة التحكيم

د. رشيدة رقي: أستاذة جامعية بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء وحاصلة على الدكتوراه من جامعة كلود برنار بفرنسا في مختبر الطب التجريبي ومؤسسة وكاتبة عامة لشبكة القراءة بالمغرب.

د. حنين معالي: حاصلة على شهادة الدكتوراه من الجامعة الأردنية بتقدير ممتاز في تخصص اللغة العربية وآدابها بشعبة النقد والأدب الحديث وحائزة على جائزة سيبويه العالمية للدراسات العليا من الجمعية الثقافية للغة العربية.

عباد ديرانية: كاتب ومترجم ومُنسق ويكيميديا في بلاد الشام، ويعمل في مجال الترجمة المتخصصة بالأدب واللغات والمعرفة الحرّة وإداري سابق على موسوعة ويكيبيديا العربية الحرة.

ولاء شحادة: حاصلة على شهادة الماجستير في اللغة العربية تخصص الأدب والنقد في جامعة القدس المفتوحة في غزة فلسطين، ولها مقالات نقدية منشورة، وكتاب نقدي بعنوان «بنية المفارقة في النص الروائي الفلسطيني المعاصر».

أمنية عادل: ناقدة سينمائية ومدونة مصرية. لها إصدارات عربية فنية وكتابية عديدة. مساهمة في مجال الرواية والقصة القصيرة ولها قصة منشورة في معرض القاهرة الدولي لعام 2020 بعنوان «اغتيال عاطفي».

هند عادل: مترجمة لروايات حرة لصالح دار العربي للنشر والتوزيع منذ 2015 وكاتبة ومحررة على موسوعة ويكيبيديا العربية ضمن مبادرة «قصتها» التابعة لمنظمة الأمم المتحدة للمرأة.

الحسين أومرجيج: باحث بسلك الدكتوراه في موضوع النحو والتأويل، وناشط في مختبر الدكتوراه «التأويليات والدراسات النصية واللسانية» بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان.

كما تتقدم مبادرة ض بخالص الشكر والتقدير للجنة التدقيق ممثلة بأعضائها من خريجي الدراسات العليا والمتوسطة في تخصص اللغة العربية والمساعدين المدققين لهم، على ما قاموا به من مجهود لغوي وتدقيقي في تنقيح القصص المشاركة وتحسينها لغويًا.

أعضاء لجنة التدقيق

د. عبد العزيز الطالبي، د. مصطفى قدوري، د. ميلود عرنيبة، علاء الدين مقروف، عائشة بناني، ياسر تانيرا، مصطفى ربيع شحاته، محمد همو، نوراي نجيب، روان المغني، أسامة إنهضي، عبد الرحمان العماري، ميشيل بكني.

أسرة مبادرة ض

كما تتقدم إدارة مبادرة ض في ألمانيا بخالص الشكر والامتنان للزملاء والأصدقاء للمتطوعين في أسرة ض في الوطن العربي وخارجه، على التضحيات بالوقت والجهد في سبيل نشر المعرفة وإثراء لغة الضاد عبر العمل الجماعي التطوعي لإنجاح المسابقة وتنظيمها بشكل احترافي، ويُخص بالذكر كل من: محمد هجاوي، وندى الفرا، وبراء زماعرة، وآسية حوميدي، وبسمة درويش، وإبراهيم اخلاوي، ورأفت عويضات ومعتصم كميل.

إهداء

نهدي هذا الكتاب لكل الأقلام الحرة الصادقة التي تثري الأدب والثقافة العربية وتغنيها. لكل من يبحث عن الموهبة في نفسه إلى أن يجدها، نهدي هذا الكتاب. لكل من يرى في حياته معنى ولذاته أهمية ويعمل لتحقيق أسطورته الشخصية في الحياة، نقدم هذا الكتاب هدية. نهديه لكل من يبحث عن التميز في الإنتاج لا الاستهلاك المعرفي. ونقدمه لكل من يضحي بوقته وجهده متطوعا في خدمة المعرفة الإنسانية ولغتنا وثقافتنا العربية. لموسوعة ويكيبيديا الحرة، وخصوصا النسخة العربية منها، وللأصدقاء في مبادرة ض من مختلف البلدان، ولجنود الخفاء الذين ساهموا بإنجاح هذا الكتاب، نهديه من قلوبنا، ونتمنى لكم قراءة ممتعة.

مبادرة ض التطوعية

مقدمة

«قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته ... مصطفى محمود»

تلخص هذه المقولة ما تسعى مبادرة ض العلمية الثقافية للقيام به منذ تأسيسها ثم تسجيلها بشكل رسمي كمنظمة تطوعية غير ربحية في ألمانيا. وكان الدافع الأول لذلك هو نقص المحتوى العربي الإلكتروني وضعفه في المجالات المعرفية المختلفة. حيث سعت المبادرة إلى سد جزء يسير من هذا النقص عبر الموسوعة الحرة الأهم، موسوعة ويكيبيديا العربية، من خلال مسابقة ض الويكيبيدية منذ العام 2015. ثم أضافت لأنشطتها إثراء المحتوى الخاص بالأطفال عبر مشروع حكايات ض للأطفال منذ العام 2019، الذي أنتج أكثر من 100 قصة عالية الجودة للأطفال بالعربية، منشورة للفائدة. وفي عامها الخامس، توسع نشاط مبادرة ض التطوعية ليشمل تأليف القصة القصيرة، عبر مسابقة حروف حرة في العام 2020.

وتقوم المبادرة بنشاطاتها بجهد تطوعي خالص وتضم متطوعين متميزين من دول عربية مختلفة جمعهم حب العمل التطوعي والرغبة في التغيير الإيجابي، خدمةً للغة والثقافة العربية والارتقاء بهما.

وتشمل أهداف المبادرة المساهمة المتواضعة بنشر ثقافة التطوع في الوطن العربي، والإنتاج المعرفي والثقافي باللغة العربية، والمساهمة بإثراء موسوعة ويكيبيديا العربية الحرة، بالإضافة للمساهمة في جعل القراءة ثقافة عامة واكتشاف وتحفيز المواهب الشابة، وتقديم محتوى هادف ومجاني للأطفال باللغة العربية.

نبذة عن هذا الكتاب

يمثل هذا الكتاب أحد أهم مخرجات مسابقة حروف حرة لكتابة القصة القصيرة والموجهة للمؤلفين الجدد في مختلف الفئات العمرية -التي نظمتها مبادرة ض في عام 2020. حيث شارك في المسابقة المئات من المؤلفين الجدد من داخل وخارج الوطن العربي، ويحوي الكتاب القصص التي حصلت على أعلى علامات لجنة التحكيم المختصة.

تهدف مبادرة ض بهذا الإصدار إلى تشجيع المؤلفين الجدد وتعريف جمهور القراء العربي بهم، وتتيح الرخصة القانونية التي وضعتها المبادرة للقراء الاستفادة من الكتاب المتنوع ونشره للأغراض غير التجارية، حيث تبقى الحقوق التجارية ملكا للمؤلفين أنفسهم.

فهرس المحتويات

شكر وتقدير 3

إهداء 5

مقدمة 6

القصة الأولى: صخب في سيفيريا 10

القصة الثانية: غربة الوطن 25

القصة الثالثة: أبواب مظلمة 43

القصة الرابعة: مشاعر مبعثرة 62

القصة الخامسة: مناضل 72

القصة السادسة: مشاهد بلا ألوان 82

القصة السابعة: القدر المشؤوم 88

القصة الثامنة: مخيلة ضمير 96

القصة الأولى: صخب في سيفيريا

تأليف: سيرين ديرانية

الدولة: السعودية

صخبٌ في «سيفيريا»

من السماء، كانت المدينة تبدو كصفٍّ من علب الأحذية الحديديّة المتلاحقة بصبغة الحداثة الرماديّة المدنيّة، وقلَّما يلمح الناظر مساحةً خضراء بين البيوت والسيارات الضئيلة المتحركة أبدًا، وحتى البيوت الساكنة عند أهلها متحركةٌ بدوران الأرض من ذلك المرقب العالي في السّماء.

كانت قد مضت سنتان على استعمار «يوفسالفا» لمدينة «سيفيريا» وها قد تغيّر وجهها تمامًا.

حول ذلك الأفق المسدود بالمباني، طغى طيف من الكآبة، طيفٌ لم يكن مرئيًّا لرهف، ابنة المدينة؛ حنطيّة البشرة، دقيقةٌ، لوزيّة العينين، طويلة الأنف، شاحبة الوجه، ذات تجاعيد بدت في وجهها كخنادق، ترتدي مريلةً طويلة ذات لونٍ أحمر.

ركبت الطفلة خلف السائق إلى المدرسة؛ ذلك السائق الذي كان يتخطف النظرات الوقحة نحوها، حتى نزلت ومشت نحو المدرسة آخذةً مكانها في طابور الصّباح.

كانت تدرس في المدرسة المئة والسادسة والسبعين، في الحي العاشر، في مدينة «سيفيريا».

تحركت الطالبات كعسكريات مدرباتٍ في الطابور، وصعدت رهف إلى الصف التاسع، الشعبة الثانية، المقعد الثاني، ولكنّها جلست على المقعد السابع، كما جلست من قبل على جميع المقاعد، ولربما لم يكن شيءٌ ليحدث لو أخطأت الصف أيضًا.

لطالما كانت الفتيات في الصف يتحدثن طوال الوقت ولا يصغين للدرس، وكانت رهف تفضّل محادثة أفكارها؛ والتي لم تكن بذلك العمق الذي تتصوره عزيزي القارئ؛ كالطعام، وقت الفسحة، أو الواجبات المدرسيّة، أو المعلمات، ولعل هذا ما انصرفت إليه أذهان بعض الطالبات أيضًا.

كان عمدة المدينة قد أصدر بيانًا منذ فترةٍ يهنئ فيه المواطنين بانتصار الدولة في الحرب، وكان الجميع يصدح بأبواق المديح والثناء على النصر العظيم في المدرسة، ولكنّ الرّئيس أخطأ في تاريخ النصر أمس، فقال: إن يوم (١٤ شوّال) هو يوم ذخرٍ للبلاد، بينما كان تاريخ يوم الانتصار قبله بيوم.

فمنذ ذلك اليوم، سيصير للبلد يومان متلاحقان يطلق عليهما: (١٤ شوّال)، ولربما لا يدرك أحدٌ أنّ ذلك غير طبيعيّ.

جلست رهف على طاولتها تفكّر في الخطاب، وهي منذهلة بسبب الخطأ فيه، فالذهول في هذه الحالة طبعها وطبع من حولها من سكان «سيفيريا» فإنها لم تكن لتفكر ولو في أحلامها بأنّ ذلك قد يكون غير صائب، أو بأن الرّئيس قد يخطئ، ثمّ أنى لها أن تصنف شيئًا أو تحكم عليه حكمًا يختلف عن حكم أندادها ومن حولها!

قاطع شرودها البارد صوت المعلمة تصرخ، كانت دائمة الصراخ، فاستحال صراخها إلى عادة طبيعية، لا تدفع أحداً للتصرف، حتى هي نفسها اعتادت ذلك حتى صار حديثها صراخًا.

كانت رهف تفكر في والدتها، ولم تكن تفكر بها بحب في الواقع، فأهل «سيفيريا» لم يكونوا يَعُون تمامًا ما هو الحب؛ لقد كان الوالدان كيانًا اقتصاديًّا، أو المحفظة التي تحتفظ بعملاتك فيها، وجوده من عدمه غير مؤثرٍ فعلًا من ناحيةٍ أخرى، ولم تكن قلة إحساس أولادهم بالحب إلّا نتاجًا لمعاملتهم بقلّة حب، سبقتها قلة حب، إنّ موقف الأب من ابنه كان لا يختلف كثيرًا عن تربيته لحيوانه المدلل، هذا إن لم يهب حيوانه الأليف مزيدًا من الحنان!

وشبيه به حال أولادهم الذين كانوا يفتقدون الحب، ويفتقدون التقدير، فما هو الحب إن لم يحوِ تقديراً!، فكانوا يتحدثون بسخرية عن كل ما حولهم في المدرسة في الحدود المسموحة لهم.

وهكذا، كانت تفكر رهف بغضبٍ من والدتها لأنها ضربتها صباحًا لتأخرها بالاستيقاظ، ويزداد غضبها لما تتذكر كيف كانت والدتها تفضل عليها أخاها الصغير، لقد دفعتها دفعاً لتتنازل له عن كل حقوقها الطبيعية، بل لم ترعها فكانت تجرحها أمامه، فيدفعها ألمها للبكاء إلى أن تبلد إحساسها فصارت تضحك، كل ذلك نمّى في داخلها شعورًا ما لبث أن نما حتى تمثّل في عقدة الشعور بالاضطهاد، وكان الافتقاد الشحيح للعدل مؤديًا لتنازل الأطفال عن حقوقهم تارةً وتقبل الضرب الظالم بضحكة، وتارةً لعقدة مظلوميّةٍ شديدة بالاعتقاد باضطهادهم، وكانت رهف من المتحسسين للظلم، فكانت تتحسس كرهًا شديدًا حيال والديها يتجاوز ما كان معتادًا، حتى في مجلس هذه الفتاة في هذا الصف الرتيب، في يومٍ متكررٍ، ستولد من التكرار، قصّةٌ غير متكررة..

كانت رهف تمضي يومًا عاديًّا، لا يقاطعه أيّ تساؤل، عندما شعرت بلمسةٍ طفيفةٍ على كتفها، فالتفتت للخلف، كانت فتاةٌ شقراء ذات عينين باردتين تجلس خلفها، قالت الفتاة:

- آسفة. بالخطأ، فعاودت رهف النظر للأمام. عادت للالتفات مدفوعةً ببعض الفضول، وكان منظر الفتاة الأجنبيّة تلك ملفتًا للنّظر، واستغربت رهف كيف لم تلحظها من قبل، ولكنّها سرعان ما نسيت ذلك، وعادت للتفكير فيما سيتناولونه اليوم على الغداء، عندما رنّ الجرس، فأخرجت الكتاب التالي، وأعادت الكتاب السابق إلى حقيبتها بآليّة، وقفزت شهد وغزل للخارج لتتمشيا قليلًا بين الحصص، وكانت رهف تكرههما لأنهما مشاغبتان.

دخلت معلمة الدّين عفاف، وسلّمت، ثمّ صرخت على الفتيات قليلًا ثمّ جلست على مكتبها، وبدأت محاولة تشغيل العارض على الجدار.

كان الدرس عن توحيد الألوهيّة والرّبوبيّة، ذلك الموضوع المكرر الذي درسته رهف ألف مرّة، لذا لم يخزها شعورٍ بالذنب وهي تلتهي عنه بالتفكير بورق العنب، كانت المعلمة تسأل عن التوحيد الأوّل، فالثاني، وتجعل الفتيات يكررنه مرارًا وتكرارًا، ثمّ

أشارت إلى رهف وطلبت منها توحيد الألوهيّة، فقرأته من الكتاب، ثمّ عادت لعدم مبالاتها، عندما رفعت مريم يدها، فأشارت المعلمة إليها، فقالت مريم بطيئة الكلام:

- لديّ سؤال، ألن نتحدّث عن النصر العظيم؟

حاولت المعلّمة تأجيل ذلك لآخر الحصة، ولكنّ الجميع بدأ بالكلام متحمّساً فرضخت، عندما رفعت فتاةٌ أخرى، يدها، أشارت المعلمة إليها بينما فكرت رهف «من الذي مازال يرفع يده ويطلب الإذن للكلام! قال الصوت:

- لديّ سؤال؟

أومأت المعلمة، فقال الصوت والجميع يتحدّث ولا يصغي، ولكنّ رهف كانت تصغي لسببٍ محدّد، كانت البنت خلفها هي من تتحدّث:

- لماذا نحتفل بالانتصار على الدول الأخرى ونحن جميعًا شرقيُّون؟

حلّ الصّمت لفترة، كان سؤالًا مبهمًا، غريبًا بالنسبة إليهم، قالت بنت:

- لأنّنا من سيفيريا وهم من البلدان الأخرى.

نظرت إليها الفتاة بعينين ثابتتين وقالت:

- أليست المدينتان من شعبٍ واحد؟

عمّ اللّغط في الصّف، واعترى الجميع ما بين الحيرة إلى الاستهجان، حتى قاطعتهم المعلمة:

- هدوء عزيزتي، لم أفهم سؤالك تمامًا؟

كانت تغمز لها لكي تصمت.

كانت رهف تحدّق بزميلتها في استغراب، عندما اعتدلت مايا (الفتاة الأجنبيّة) في وقفتها، وقالت بصوتٍ واضح:

- جميع البلدان في هذه الجهة كانت مملكةً واحدةً فيما مضى، هل أنا مخطئة؟

قالت المعلّمة:

- كما تعلمين، نحن عمليًّا تابعون ل «يوفسالفا» ولشعبها، ولا علاقة للماضي السَّحيق بذلك.

تعالت أصوات التأييد، وبقيت مايا صامتة، قالت مايا بهدوء عابسة:

- كيف كان ذلك ماضيًا سحيقًا ولم تمرّ سنتان على الاستعمار؟

تعرّقت المعلّمة وعبست، ثمَّ قالت:

- هيّا، لنكمل الدّرس.

كان الصمت حالًّا، وبدت وجوه الفتيات حائرةً تنظر يمنةً ويسرة، والكثيرون حدّقوا في مايا. في خضم ذلك كانت رهف الأكثر دهشة، بأن يكون هذا العالم القويّ الذي تعرفه نشأ قبل سنتين فقط، وباعتبار أهالي المدن المجاورة إخوةً لنا، وهو ما بدا جديدًا عليها تمامًا.

كان يوم الفطور الصّحيّ، وكانت رهف قد تهرّبت بطريقةٍ ما من همّ المشاركة، وجلست بعيدة تأكل قليلًا مما جلبته الأخريات، صامتةً، كانت مايا قد أحضرت أكلةً غريبة من بلدتها المجاورة، وجاملتها الأخريات فأثنين عليها، فقد كانوا أشخاصًا طيبين، وكانت تلك خصلتهم الحسنة الباقية في المدينة (سيفيريا) بعد أن فقدوا خصالاً أخرى كثيرة حسنة.

كان قد أعلن في الصباح عن التصالح العسكريّ العظيم مع مملكة «ليفين»، الذي دفعت فيه «سيفيريا» ومن حولها لمملكة «ليفين» نصف اقتصادها؛ لكيلا تهاجمها، ولكنّ الشعب أطرى على محبة السلام والتصالح، والحكمة في هذا الاتفاق.

كانت رهف تحدّق بظهر مايا، غارقةً في أفكارها، عندما سمعت المعلّمة تقول:

- لقد كسبنا هذا الطَّعام بفضل تقنيات «يوفسالفا» المذهلة في الزراعة والحصاد، والآن، من سنشكر يا فتيات؟

قالت الفتيات بصوتٍ واحد:

- شكرًا ل «يوفسالفا»!

عندما عقدت المعلمة حاجبيها ورمقت مايا، كانت رهف تنظر إلى مايا بدهشة، فقد لاحظت مثل المعلّمة، أنّها لم تنطق بحرف. قالت المعلّمة بصرامة:

- مايا.

قالت مايا:

- الحمد لله.

توسعت عينا المعلمة، وسكتت لوقتٍ طويل، قبل أن تقول:

- آه.. نعم، ولكن من بعده؟

مايا:

- لا حاجة لوضع شريكٍ معه.

عقدت المعلّمة حاجبيها، وكانت رهف تزداد دهشةً على دهشة، ولكنّ المعلّمة لم تجد ما تستطيع قوله، فسكتت وهربت من الموضوع، وها قد انتصرت مايا مرَّةً أخرى، شعرت رهف بأنَّ من المذهل إسكات المعلّمة هكذا، رنّ الجرس وانفضَّت الفتيات، عندما اتجهت رهف نحو مايا بخطٍّ مستقيم، التفتت مايا إليها باستفهام، فقالت رهف وقد أخذتها الحماسة:

- مذهلة! كيف استطعت التفكير برد كهذا؟

كانت رهف تزداد اضطرابًا باقترابها من هذه الفتاة، فالأسئلة تزداد، وأشكال الأشياء تختلف، وهذا ما زادها شعورًا لم تألفه بالإثارة، فباتت تلتفت إلى مايا أحيانًا في وسط الدرس، وتطرح عليها سؤالًا ما، ولم تخيّب مايا بأجوبتها ظنّها قط، فدائمًا ما كانت تذهلها.

بشكلٍ عام، لم يخلُ قلب رهف من احترامٍ للمدرسة، وللطالبات، ولكلّ النّاس، وربّما كانت بطريقةٍ ما تزدري نفسها على نحوٍ ما، أو تهمشها، مثل جميع قريناتها، كان وجودها أمرًا مشكوكًا به، وجودًا ضعيفًا، حقيرًا، وعلى العكس منها بدت مايا شامخة، مثيرةً للاهتمام وبرّاقة، ومن العجيب إذ قدِّر لهما أن تصبحا صديقتين حميمتين، قريبتين وبعيدتين، كانت تلك صداقة الماء والنار، لن تنسى رهف ما عاشت، أو هذا ما اعتقدته، ذلك اليوم الذي خجلت فيه. كان عليها قراءة نص، ولكنّها أخطأت بنطق الحروف، ونطقت كلمةً نابيةً بالخطأ، احمرّ وجه المعلمة وصرخت بها، وأخذت الفتيات بالضحك عليها، كانت أصوات الضحك المجلجل تتردّد في كلّ مكان، احمرّ وجه رهف، وتحسّست ذلًّا غير مألوفٍ من قبل.

بنظر المعلمة، كانت وقحة مستحقةً للضحك عليها والسخرية منها، ولم تكن الفتيات ليفكرن بمشاعرها حقًّا، شعرت بالاختناق، وأوشكت على البكاء حين سمعت بنتًا تصرخ:

- هدوء، نحن لا زلنا في الحصّة.

وبدهشة، سكتت الفتيات، التفتت رهف، ورأت مايا تقف بعيدًا، بعينيها الواثقتين كلؤلؤتين، وبشرتها الفاتحة، كانت مذهلة، هذا ما تبادر لرهف مع مشاعر امتنان عميقة، جلست الفتيات وسكتن، وعادت مايا لمقعدها مغلقةً عينيها وزافرة، باتت أحاديثهما تزداد، حتى ذهبت رهف في الفسحة بعد يومين، وجلست بجوار مايا، التي رمقتها باستغراب.

فقالت رهف:

- أريد شكرك.

فدهشت مايا، ثمّ نظرت إليها بهدوء، ابتسمت رهف وقالت:

- لقد كنت رائعة.

كانت عيناها واسعتين بريئتين كطفلة وهي تقولها، كانت منذهلةً بمايا فعلًا، بل مفتونةً بها، ولطالما فعلت ذلك.

قالت مايا بهدوء:

- العفو.

ومنذ ذلك اليوم، بات وجودهما معًا أمرًا طبيعيًّا، وباتت رهف ملتصقةً بمايا طوال الوقت. كانت كلّ كلمةٍ من مايا إضاءةً بالنسبة لها وتنويرًا، حتى أنها بدأت تغيّر تفكيرها في كلّ شيء، علّمتها مايا نبذ المألوف، وفتح الآفاق للإبداع، احترام الآخرين، وصفاء القلب، ولو كان كلامها المذهل يخالف ما اعتادت سماعه وتعلُّمه في غمرة حماستها، بات الصعب سهلًا، والمستعصي ممكنًا، بل إنّ هذا ربّما ما جعلها تبدو مذهلة، أنّها كانت تقول أشياء لم يقلها أحدٌ من قبل.

قالت رهف:

- مايا، لماذا تعادين «يوفسالفا» بهذا الشَّكل؟

قالت مايا بعينين ضيقتين وقد بدا عليها التفكير:

- أنا أكرههم.

رفعت مايا عينيها إلى رهف وقالت بعينين مضيئتين:

- ألم تقرئي تاريخ المملكة الشرقيّة؟ النصر، والهزائم، والمعتقدات؟ إنَّه تاريخٌ حافل، أتعلمين بأنّ المملكة الشرقيّة كانت تمتدُّ حول كلّ القارّة في الماضي؟ وكانت «يوفسالفا» مجرّد جزءٍ منها.

قالت رهف بدهشة:

- لا، كيف تعرفين كلّ هذه الأشياء؟
- لقد قرأته بنفسي.

ضاقت عيناها بحزن، وقالت مايا بصوتٍ منخفض:

- والدي أعطاني إيَّاه.

سكتت رهف.

أكملت مايا بعينين متألمتين:

- لقد خرقت «يوفسالفا» الهدنة التي عقدتها معنا وهاجمتنا بنذالة، كما استغلّت كلّ المعارف التي كانت لدينا والقوى العاملة، ونقلتها لبلادهم، إنَّهم يستغلُّوننا ويعاملوننا كحمقى! وبكلّ سذاجة، ترين جيل اليوم جاهلًا بكلّ شيء، أرأيت ضحيّةً تعبد جلَّادها؟ هذا ما نحن عليه!

كانت رهف مصدومة، وكان هاجسٌ ما يخيفها حيال مايا، كانت مايا تعارض كلّ ما تعرفه وتقدَسه، وتحطمّه إلى فتات، وشعرت بالتهديد منها، ولكنّ رهف كانت مفتونةً بها أيضًا وبقدرتها على فعل ذلك، صمتت مايا وأغمضت عينيها، ليعرض شريطٌ من الذكريات المؤلمة أمامها؛ والدها وهو يودعها مرتديًا ملابس الجيش، كانت تبكي بشدّة، ولكنّه كان مصرًّا على الوفاء بواجبه حتى آخر لحظة، ومحاربة من يقتحم بلاده، وذهب، ولم يعد أبدًا، وبقيت وحيدة، في بيته الفارغ، وبين كتبه الكثيرة. أبعدت مايا هذه الأفكار عن ذهنها.

لاحقًا، كانت رهف تودع مايا عند البوابة، عندما لاحظت بدهشة الشاب الذي نزل من سيارة مايا وحمل حقيبتها عنها، كان أشقر، طويلًا، باسم الثغر، وهو ما كان نادرًا حقًّا في أوصاف الشباب من «سيفيريا»، قالت رهف بدهشة:

- هل هذا والدك؟

ضحك زين وأجابها بنفسه:

- لا لا، أنا شقيقها.

وودَّعت مايا.

مع الأيّام، بدأت وجهة نظر مايا تتضّح أكثر، قالت مرّةً لرهف:

- بالمناسبة، أليس لديك حلم؟

نظرت رهف إلى صديقتها بحيرة، ثمّ قالت ببطء:

- لا.

ابتسمت مايا وقالت:

- هذا مؤسف، أمّا أنا، فأحلم بتغيير هذا المجتمع.
- كيف؟

- أتعلمين؟ إنّنا نفقد أنفسنا شيئًا بعد شيء، نرتدي ثيابهم، ونتحدّث مثلهم، ونأكل مثلهم، إنّنا نفقد عاداتنا واعتزازنا، وكلّ ما يجعلنا نحن، لست واثقةً إن كنّا ما نزال نحن بعد الآن ونحن ننكر أنفسنا!

كانت رهف مذهولة، وقالت:

- نحن؟ الشرقيُّون؟

فأومأت مايا.

- آه، كم تبدو تلك الأيّام بعيدةً الآن، وضبابيّة، ومصبوغةً بصبغةً من التلاشي البائس، وكأنّ الصفحات طوتها شيئًا فشيئًا، كان لديهما الكثير من الذكريات، ومما يُتذكر أيضًا؛ تلك المرّة التي كانت مايا فيها تستلقي مريضةً في عيادة المدرسة، كانت رهف قلقة، ولكنّ مايا بدت هادئة، كانت نوباتٌ غريبة من السعال تراودها أحيانًا، حتى أغمي عليها في ذلك اليوم، استيقظت مايا في السرير، واستمرّت رهف بطرح الأسئلة:
- هل يؤلمك شيء؟ هل أنت بخير؟

ولكنّ مايا بدت هادئة، كانت تتأمّل النافذة بخشوعٍ غريب، بشرتها البيضاء بدت شفافةً في تلك اللحظة، وبدت عروقها النابضة ظاهرة، ولكنّ وجهها هادئ، وعيناها لامعتان ببريقٍ آسر سحر لبّ رهف الناظرة إليها، كانت مايا تبدو كملاكٍ يتلاشى ببطءٍ في ضوء الشمس ليعود إلى السّماء، وربّما كانت حقًّا كذلك، ذلك ما فكرت به رهف.

قالت مايا:

- رهف

قالت رهف سريعًا متنبهة:

- نعم؟

بقيت مايا ساكتة، ثمّ التفتت بعد قليل إليها، ومدت يديها البيضاوين نحوها، وإذا برهف تشعر بيد مايا الباردة الناعمة تلمس خدّها، توسعت عيناها، وقالت مايا بصوتٍ بدا دافئًا للغاية:

- هل تؤمنين بما أؤمن به؟

بقيت رهف مأخوذة بموجة الدهشة قليلًا، ثمّ أجابت بلا تردد:

- نعم.

ابتسمت مايا، وقالت:

- شكرًا لك رهف، هذا العالم لا يعجبني.

أمالت رهف رأسها، وقالت:

- لمَ؟ العالم جميل.

إنّه جميل، ولكنّ البشر ليسوا جميلين يا صديقتي، ليسوا جميلين على الإطلاق، ليس البشر ولكن الآليُّون.

مايا، كلامك يبدو أحيانًا غامضًا وغير مفهوم، كيف يكون البشر آليّين؟

ابتسمت مايا، وقالت:

- عندما يفقدون سمات البشر، ويسلمون أنفسهم لسمات الآليّين، عندما يكونون فاقدي الإرادة مثل قطع الحديد التي تتبع برمجتها.
- وما هي البرمجة التي يتبعونها؟

ضحكت مايا، وآخر ما يتجلى في الذكرى صوتها وهي تقول باسمة:

- هذا ما عليك أنت اكتشافه، بدت أفكار مايا غامضة.

كانت كلّ هذه ذكرياتٍ جميلة، ذكرياتٌ تجلب الدمع حين استذكارها، جميع هذه المقدّمات كانت طريقًا لما ساقهُ القدر، نحو الحفرة الأخيرة، التي ستكتب النّهاية لهذه الأيّام الجميلة.

أعلن بعد فترة عن خبرٍ كان بداية التغيير، عن أمر «يوفسالفا» بتغيير لغة «سيفيريا» للغتهم. كان هذا اليوم، عندما انتشر مقطعٌ على الشبكة العنكبوتيَّة، وكان غريبًا جدًّا لسكّان «سيفيريا»، كان قنبلة غير متوقعة.

يبدأ المقطع بموسيقى حزينة تدقّ أصوات البيانو فيها بهدوء، يرتفع صوت البيانو، ويبدأ صوتٌ هادئ بالحديث بينما تجول آلة التصوير على بعض النباتات في حقل: «هنا حدثت المعركة الأولى، بين السلطان الأوّل لسيفيريا والغزاة، هنا انتصر السلطان، وهنا انتصرنا، نحن الشَّرقيُّون.»

«أتتذكرون؟ أم لم تعودوا تعرفون تاريخكم بعد الآن؟ هل تبرأتم منه وارتديتم أقنعة شعبٍ لا يشبهكم جازمين بتفوقه دون أن تنظروا إلى أنفسكم؟»

«نعم، أنفسكم هذه، ليست أهلًا للتقدير بعد الآن، نحن من نجلس كالدمى الخشبيّة ونترك أعداءنا يتحكمون بنا.»

تتحرّك آلة التصوير، وتصّور شروق الشّمس على الحقل وتقول: «إنّ سكان (يوفسالفا) ليسوا بأبطال، بل غزاة، قتلوا أجدادنا وآباءنا، حاربونا، وتحكموا بنا وصقلونا في قوالبهم، وجعلوا قلوبنا عبدةً للاحتذاء بهم، نحو الحريّة، فلتلحقوا بي».

«لقد اختلست (يوفسالفا) وسرقت، ونهبت، واستغلّت، الكثير من الأراضيّ تحولت ملكيتها لها بالغصب، غيّرت المناهج، وصنعت خدمًا لها من الأجيال القادمة».

كانت الكثير من الوثائق التاريخيّة والصُّوّر تعرض في المقطع.

«وها هي الآن، تريد سلبنا حتى لغتنا!»

تصل الموسيقى إلى ذروتها، ويقول صوتٌ قويّ:

«لنجتمع بعد أسبوعٍ في ساحة المدينة، وننتزع حريتنا بأيدينا».

كان الجميع في المدرسة يتداول أمر المقطع بدهشة، باستغرابٍ، أو باستهزاء، لم يبق إنسانٌ لم يتحدث عنه، وكانت رهف تتنصت على تلك الأحاديث هي الأخرى، الفتاة الوحيدة التي بدت غير مهتمّة، كانت مايا، وكانت رهف متردّدةً حول طرح الموضوع عليها، ولكنّ هاجسًا غريبًا دفعها لعدم فعل ذلك.

مضت الأيّام هادئة، كانت رهف تشعر بهدوءٍ غريبٍ حيال ذلك، أو عدم اهتمام، وكان ذلك من طبيعة شخصيّتها، كانت التعليقات على المقال تتزايد باطراد، وكان أكثرها منفعلًا غاضبًا لإهانة شعب «يوفسالفا» وقليلها يتفكّر فيما قيل، ولكنّ الأغلب يستجلب الأعذار على الظلم والطغيان الذي تعرضوا له، ويستسخف العبوديّة الموصوفة، كان اليوم التالي، وكان الجميع يجلس على مقاعده في المدرسة، تأملت رهف حولها، كانت مايا تبدو نعسة، والجميع يثرثر بفتورٍ اليوم، تناهت إلى سمعها أحاديث متفرقة:

- لقد سمعت بأن الحكومة قبضت على معارض «يوفسالفا».
- حقًّا؟ هذا عظيم.
- لا أفهم لماذا قد يفعل أحدٌ شيئًا كهذا.
- حقًّا، لماذا يثور البشر ويقومون بالأمور الخاطئة؟ إنّهم أغبياء.

لم تكن رهف تحمل فكرةً ما حول ما حدث، وكانت وجهة نظر الفتيات السابقة قد أقنعتها، ولكنّها كانت حذرةً من التصريح بأيّ رأي قبل الأخذ برأي مايا، كما كانت ما تزال تفكر بحيرة بكلام مايا الأخير في سرير العيادة. قالت رهف:

- مايا؟

فتنبهت مايا التي كانت تبدو شاردة، وقالت:

- ماذا؟

سكتت رهف قليلًا، ثمّ قالت:

- بشأن ما قلتيه آخر مرّة..

كانت ستتحدّث عندما قاطعها رنين جرس الفسحة، فعبست، سألتها مايا عما كانت ستقوله، ولكنّها غمغمت بأنّه لا شيء، نزلتا على الدرج، وعلّقت مايا على الشطائر الجديدة في المقصف، وتبادلتا حديثًا قصيرًا، كان يومًا ساطعًا، ولكنّه بات شاحبًا الآن، يومًا من تلك الأيّام القديمة لم تكن رهف مهتمّةً به بقدر تذكر تفاصيله جيّدًا. كانتا تسيران للمنزل، عندما خطر لرهف خاطرٌ غريب، فسألت مايا كما لو كان وحيًا ربانيًّا نزل عليها:

- مايا، ما رأيك بالمقطع؟

نظرت إليها مايا بدهشة كما لم تنظر من قبل، ولكن رهف بقيت ثابتة، كان شعورٌ يراودها بأنّها ستضع يدها على نقطةٍ جوهريّة، كان ذلك الوجه الأخير الذي رسمته مايا أمامها، قبل أن ترى رهف بهدوء، ذلك المشهد المخيف.

رأت وجه مايا الذاهل تغمض عيناه شيئًا فشيئًا ويشحب، حتى تسقط على الأرض فجأة، وتصطدم بها مصدرةً صوتًا عاليًا، كانت لحظةً مخيفة.

في المشفى، كانت مايا ترقد بهدوء، وجهاز التنفس يأخذ بالهواء إليها، تشبثت رهف بكمّها بتوسّل، وتمتمت للطبيب:

- هل ستكون بخير؟
- قال الطبيب:
- أعتقد أنّه بسبب فقر الدم، نعم.

أومأ، فيما فتحت مايا عينيها بهدوء، ترقرقت عينا رهف وأمسكت بيد مايا بقوّة وقلق، كانت مايا هادئة، كما كانت دومًا، عندما أشارت لهم برأسها فنزعوا جهاز التنفس، قالت مبتسمة:

- أنا بخير.

فكشفت رهف عن ابتسامةٍ واهنة، بقيتا ساكنتين قليلًا، عندما بادرت مايا بالحديث:

- الموعد غدًا، أليس كذلك؟

تأملتها رهف بهدوءٍ ودهشة، ثمّ أومأت بالإيجاب، ابتسمت مايا، وقامت بهدوء، وقالت وهي تمسك بيد رهف:

- هل نذهب من هنا؟

أمسكت رهف بيد مايا العليلة، وببطء، قامتا معًا، دفء يد مايا، وبرودة الهواء المتدفّق من النّافذة، وصوت خطواتهما على الأرضيّة، جميع ذلك كان محسوسًا بشكلٍ مشوّش، ولكنَّها كانت عازمة.

أوصلتها رهف حتى الباب، قادتها خارج المدرسة، وأصرّت على حمل حاجاتها، كان جوًّا غريبًا يسيطر على كلتيهما فلم تتبادلا الكثير من الكلمات، وبقيت دقات قلب رهف تتسارع طوال الطريق، مع كلّ خطوة كان قلقها يزيد، حتى تمتمت بصوتٍ خافض:

- مايا، هل ستذهبين؟

ابتسمت مايا ابتسامةً دافئة، وهي تقول:

- إلى أين؟

ضاقت عينا رهف، وقالت:

- إلى السّاحة.
- لا، لن أذهب.

ترددت تلك الكلمات كالبرد والسّلام على رهف، وكأنّ أحدهم رماها بكوب ماءٍ دافئ.

كانت تريد سؤال مايا عن رأيها في المقطع بعد، ولكنّ مايا، كانت قد سارت بعيدًا قائلة:

- أراك غدًا.

رهف:

- آه، نعم.

عادت كلٌّ منهما إلى بيتها، وقضيتا ليلةً قلقة بنفس القدر، ولكنّ الفرق، أنّ رهف لم تقضها في منزلها، فقد كانت هناك تلك السيارة السوداء التي كانت تنتظرها أمام بيتها، كانت تلك السيارة المنظر الأخير الذي رأته، قبل أن تشعر رهف، بتلك الجذبة القويّة من ذراعها، كان أناسٌ بملابس سوداء يسحبونها للخلف ويحيطون بها.

كانت مصدومة، وقاومت قليلًا، ولكنّ الأذرع القويّة أخذتها بالقوّة للخلف، وأدخلتها إلى السيارة، رأت مايا المنفعلة تحاول الرَّكض خلفها، كانت آتيةً من بعيدٍ حين رأت ما يحدث، ولكنّ السيّارة اختفت في الأفق، بملامح الذعر والخيبة، وكأنّ سهمًا قد سُدِّد إلى قلبها، خانتها سيقانها، وسقطت مايا بقوَّةٍ على أرض الشارع، هذا ما شاهدته عينا رهف المذعورتان، من مؤخرة السيارة.

إنّ أصوات الفتيات الواقفات في الطريق والمذعورات، وصراخ مايا، وصوت السيارة، وصمت الرجال السُّود، كلّ ذلك كان أنغامًا من نهاية معزوفة، وبداية أخرى. في اليوم التالي، لم يجتمع أحدٌ في الساحة المطلوبة، كانت هناك تقف فتاةٌ واحدة، ذات شعرٍ أشقر، وعباءة غريبة، مايا فقط، تلك التي قبض عليها على مرأى من جميع المواطنين الجبناء، كانت قد أطلقت صرخةً وحيدة قبل أن يقبض عليها، صرخةً ضعيفة، ولكنّها تختزن في داخلها الكثير من القوّة، وبذرةً من نبتة، تركتها في نفس كلّ شخصٍ كان يرى أو يستمع..

«حتى اليوم الذي نتحرّر فيه».

حتى اليوم الذي نملك فيه أنفسنا، الذي نحبّ فيه أنفسنا، الذي نملك فيه آراءنا، نكون فيه أنفسنا، ونحيا لأجل أنفسنا، الكثير من الذكريات انتفضت على طول الطريق، وقاومت زهرةٌ وحيدة، لتنبت، وتلك الطفلة تؤخذ لأنها اقترفت ذنب الشجاعة، كان الجميع يراقب، «لماذا فعلت ذلك؟» كان ذلك السؤال سيتردّد كصدى طويل الأمد.

عندما عادت رهف، كان كلُّ شيءٍ قد اختلف، بل قد انتهى.

ماتت مايا بالسلّ الذي كانت مصابةً به، وكأنَّها لم توجد أبدًا.

بعد فترة، عادت المدرسة، عادت المعلمات، الدوام، الفسحة، بدا لرهف وكأنّ العالم ينكر وجود مايا، ويصمها بوجودٍ عديم الأهميّة، لقد نسي العالم، ونسي التاريخ، ولكن الله لا ينسى.

إنّ الأزهار على طول الطريق نبتت، والحياة سارت، تاركةً خلفها شهيدةً جليلة، قُبض على زين الذي كان وراء المقطع، وكان شقيق مايا الوحيد، ولقي نفس مصير مايا، وهو الفقد المجهول، والانمحاء الأبديّ من العقول، هذه مدينة كان البشر فيها آلات، وكان للتفكير فيها انمحاء، والتغيير هباء، نضال إنسان كان مجرّد صخب، صخبٍ وإزعاجٍ يجب إسكاته، سيمرُّ ويختفي.. صخبٍ في «سيفيريا».

حول ذلك المسرح، كلّ الفتيات في الطابور الصباحيّ، كان قد مرّ أسبوع، وكانت المدرسة تحتفل بقدوم المدير الجديد للمدرسة من «يوفسالفا»، وكانت رهف في شبه إغماء، مرَّت الأحداث كأضغاث أحلام، كانت ضائعةً تمامًا.

الفتيات يفسحن للمدير، ولكن رهف لا تتحرّك، يبدأ الخطاب للترحيب، ولكنّ رهف لا تصفّق، يحين دورها لتقول كلمتها، فتأخذ بالميكرفون بخطواتٍ بطيئة وهادئة، فقط مثل صوت حياة مايا الجميل، تتقدّم، وتقف أمام كلّ المدرسة ممسكةً بالميكرفون.

صرخت:

- «فليسقط المدير الجديد ويسقط كلّ مستعمرٍ من (يوفسالفا)».

القصة الثانية: غربة الوطن

تأليف: هالة العملة

الدولة: فلسطين

غربة الوطن

على أنقاض اليُتم

فتحَ الطفلُ عينيْه، توقفَ الزمانُ لحظة، وجَمُدَ العالمُ لحظتيْن، خرجَ للحياةِ صارخًا، وُضِعَ على قلبِ أمه يبحث عن ترنيمةِ الأمانِ التي جُبِلَ عليها في تسْعةِ أشهر، ما أن تصلهُ السيمفونيةُ حتى يهدأَ قليلًا ثمَّ يبدأ.

يبدأ حياتهُ التي كُتِبت له منذُ أن كان نطفة، ليعيشَ حزينًا، أو سعيدًا، فقيرًا، أو غنيًّا، سليمًا أم كلّا.

تبدأ رحلةُ الكبدِ في كبد، تحملُ بين طيّاتها لحظاتٍ جميلة، ولحظاتٍ أقلَّ ما يُقال عنها مؤلمةً وحزينة، لكن يُقاس الإنسانُ بصبرِه وقوةِ تحمُّلِه، ذلكَ أنّ من بثَّ فيهِ الروحَ جعلهُ أهلاً لها.

رحلةُ الحياةِ مدرسة مليئةٌ بالتجارب القاسية، لا تنظرُ إلى كبيرٍ أو صغير، مريضٍ أو معافى، لكنّها الحياة، والتي زُيّنت بأجمل ما يكون، ألا وهي العائلة.

عندما أستحضرُ هذهِ اللفظة يتبعها لا إراديًّا، الأمان، السند، الاحتواء، الحب، إن العائلة رزقٌ من ربِّ البريّة، وهي رابطة الدّمِ التي مهما قست أو ابتعدت ستعود يومًا إلى موطنها حيثُ كانت، وكما هي رزقٌ فإنّه موزع بحكمةٍ إلهيةٍ لا نعرفُ فحواها، لكنها لخير، فهذا أمر المؤمن، إنَّ فقْدَ أحدٍ من العائلة، كفقدِ جزءٍ من الروح تمامًا، فماذا لو كان الفقْدُ يتمثّلُ في قلبِ العائلة ؟!، ألا وهي الأم!

هنا يصبحُ ألمُ الفراقِ آفةً، يستهلكُ الروحَ والجسدَ شيئًا فشيئًا، وسيكتبُ على جبين من فقد كلمةٌ لطالما كانت تعجُّ بالمرارة، إنّها اليتم، فيقالُ يتيمةٌ أو يتيم، فتشعرُ أن الروحَ قد اختلجت، والقشعريرة انتشرت، والقوةُ انهارتْ، إنها تُطبعُ في القلب كبقعةٍ سوداء قانية، وتظلُّ للأبد، فإما أن تتركها تسيطر، فيصبحُ القلبُ خاويًا، أو تحافظَ عليها في سردابِ الذكرياتِ الماضية، وتحاول نسيانها؟

يجلسُ على شرفةِ النافذة بعدَ منتصفِ الليل، ما إن يسودُ الصمت، حتى تبدأ سيول الذكرياتِ كشلّالٍ يتدفّق في ليلةٍ ماطرة، جميعها تتراءى له في لحظةٍ واحدة كفيلمٍ سينمائيّ يُعرضُ بسرعةِ البرق، ذكرياتٌ أليمةٌ، قاتلةٌ، حزينة، هذه الكلمات تعجزُ عن وصفها، فهيَ أشدُّ من ذلك، تلمعُ في رأسه صورة عندما كانت أمه تمسّدُ على رأسه بحنانِ جمّ، وهي تغنّي له أغنية النوم، يذكر صوتها العذْب يقول:

- لا تبكِ يا صغيري، لا. انْظُرْ نحو السماء

من قلبكَ الحريري، لا، لا تقطع الرجاء

إن الأمل جهدُ عمل والجهدُ لا يضيع، الأمل جُهدُ عمل

يقولها بصوتٍ خانقٍ والعبراتُ تسقط من عينيهِ بحرارة، أمي عودي إليّ، يتذكّر نفسَهُ عندما أخبرها أنّهُ يحبها حقًّا، وهوَ من دونها لا يساوي شيئًا، كانت تقول «بنيّ، أحبّك، أنتَ كلُّ ما أملك، أنتَ فلذة كبْدي، أرى العالم داخلَ عينيك، أسمعُ بأذنيك، أتنفس برئتيك، لا يهمني ما يقولونه عنك، لأنّك الأجملُ في ناظريّ، أنت مسكني وسكينتي وسكوني يا بنيّ».

في الصباح الباكرِ من أيامِ الرّبيع، يجلسُ على الشّرفةِ من الطّابق السابعِ منهمكًا في العمل على جهاز اللابتوب الخاصّ به، يضع لمساتهِ الأخيرة مع اسمه تسبقها كلمة المحامي، شعر بالثقة والفخر، ودعا اللهَ أن تسير الأمور على خير، هذهِ أوّلُ قضيّةٍ يستلمها لوحده، وستكون الأخيرة إذا فشلَ فيها، لكن مثل هذا لا يخيفه شيئًا، فقد درس وجدّ واجتهد ليحقق حلمه الذي حَلُمَت به إنسانة وعلّقت آمالها عليه، ولم تكترث لأحد، اشتعلت القوة في صدره لذكراها، وقال بهمس:

- الله يرحمك يمّا.

في المحكمة يقف بطلُنا مُطلًّا بأبهى صورة، مرتديًا رَوبَهُ الأسود بهيبةٍ ووقار، يقف على المنصةِ بكلّ شموخٍ وعزة، يتكلمُ كما لو كانت هذهِ القضية العاشرة التي يأخذها، بعدَ وقتٍ مضى يطرق القاضي مطرقة العدل التي أبت إلا أن تنصفه وتحقق مراده، انتهت المحكمة، بدأت التبريكات والتهاني تنهلّ على براء كالمطر لنجاحه في قضيته الأولى بكل قوة، رغم كلّ الصعاب وها هو صديقه الحميم محمّد يعانقه حبًّا يصلُ مداده حدّ السّماء، يضربه بقبضته على كتفه ويقول له، لقد فعلتها يا صديق، أنا فخورٌ بك، فرحة البراء ينقصها شيء، ينقصها مذاقٌ بطعمِ السّكّر، لكنه كالعلقم، تنقصه تهنئة أمه التي لولاها لما كان يقف هنا اليوم، لمعت عيناه حزنًا، وقال بصوتٍ مسموع، أهدي نجاحي لقطعةٍ من قلبي تسكنه روحها، أهديهِ إلى روحِ أمي، صفّقَ كلُّ من كان حوله، ثمّ دعاهم إلى الغداءِ احتفالاً بنجاحه.

على مائدة الطّعام يجلسُ البراءُ مع أصدقائه، يمرحون ويضحكون، حاضرٌ بجسده غائبٌ هو بفكره، يتراءى أمام عينيه لقطة من ذكرياته «يجلِسُ في المدرسة على مقعده في الصفّ الأخير عابسًا حزينًا وحيدًا، جميعُ زملائه في الاستراحة يلعبون ويمرحون، ما إن يرونه قادمًا حتى تعلو أصواتهم، انظروا جاء الوحش، وآخر يقول هذا مسخ وهذا يقول لا تنظروا إلى عينيه، سيجعلكم مثله، أما هو يسمع هذه الكلمات فيركضُ والدموعُ تسابقُه، ليجلسَ كما اعتاد في زاويةٍ بعيدةٍ في حديقةِ المدرسة، التي أصبحت مأواه، يجلسُ والدموع تأبى إلا أن تخرج من عينيه كالأمطار الغزيرة في ليالي الشتاء الباردة، يدعو على نفسه كثيرًا، كيف لهم أن يسخروا من شكله ؟! لا دخل له في خلق نفسه ولا إيجادها، يتذكر دويّ ضحكاتهم في رأسه، فيعتصُر قلبُه ألماً ويبكي بكاءً لا صوتَ فيه حتى تتقطّع أوتاره ...»

محمد:

- براء.. براء.. براء!!
- آه، نعم، ماذا تريد؟

- مالي أراكَ شاردًا يا براء؟!
- لا شيء، لا شيء، تذكرت أمراً كان قد غاب عنّي.
- هل هو مهم؟!
- كلّا على الإطلاق، لا تشغل بالك محمد.
- افرح يا رجل، نحن نحتفل بك، هيّا دعني أرى البسمة تزيّن وجهك.

تبسّم براء على مضض، وبمخيلته صورته يبكي تحت الشجرة، أنهى طعامه واستأذن بأن لديه مشواراً ضروريًّا.

يذهب إلى مكانٍ اعتادت عليه حجارة الشارع، وضوء مصباح الإنارة، وأسماء الدكاكين، شارع يحفظ ملامحه عن ظهرِ قلب، لو كان أعمى لمشى فيه بكل جرأة دون أن يتحسس طريقه، في آخره بوابة مخيفة كتب عليها بخطٍ باهت «المقبرة» يدخل حيث اعتاد ينعطف يمينًا، ثم يمشي سبعَ خطوات، لكثرة ما ارتاد إلى هنا تربة المكان حفظته وتظهرُ آثارَ قدميه في خطواته السبع التي حفرت كما لو أنها منحوتات.

في كلّ مرةٍ يذهبُ فيها كما لو أنه يذهبُ لأولِ مرة، يذهب بنفس اللهفةِ والشوقِ، لكن هذه المرة تضاعف، فهو قادمٌ يزفّ لها خبرًا جميلًا، كما لو أنها حيّة، يجلس على الأرض بجانبِ قبرٍ لم تخلُ من وردات يانعة بيضاء جميلة، يقول:

- مرحباً أمي، كيف حالك؟ اشتقتُ لكِ يا أمي، لقد حققتُ حلمنا الذي حَلمْناهُ سويّةً، تسلّمت أولَ قضيةٍ يا حلوتي، نجحتُ فيها يا أمي، تمنّيت لو كنتِ بجانبي وقلتِ هذا ابني الذي أعرفه، أفتقدُكِ أمّي..

يصمت في وجل، ودموعه على وجنتيه بغير استئذان، شعر بصوتها يطبطب عليه، كما لو أنها تقول:

- أنا فخورةٌ بكَ بنيّ، أنتَ إنسانٌ عظيم، امضِ في طريقك إلى أن تتصدّر المحاماة لتعبّر عنك أنت لا لتعبّرَ عنها، امضِ يا بنيّ، إنّي أرى فيكَ جبلًا وعزيمة وإصرارًا، امضِ يا بني.

فتح عينيه كما لو أنّه يسمع:

- أعدكِ أمي ألا أهون ولا أضعف، أنا ابنُكِ الذي ربيتني وشجّعتني، سأردُّ لكِ الجميل بتحقيق الحلم الذي عشناه سوية على أمل أن يتحقق، يودّع قبرها بنظرة عميقة ويقرأ الفاتحة كهدية لها، ثمّ يضعُ وردةً بيضاءَ كقلبها تماماً.

حملَ انكساراته ليمضي.

إنّ قلوب الرجال مهما بلَغت من قوة تَهوي بها الأمّ في غيابها وتُضعف أركانه، أزاح ثقلَ هواجس الذّكرى لتحملهُ رجلاهُ على الوقوف.

يلتفت فإذا بها امرأةٌ تبَان عليها مظاهرُ التّرف، وهندامٌ مُغاير لما نرى في الحي.

- أظنّكَ ابنها، ابنها براء أليس كذلك؟

أجابّ براء مستغربًا:

أنا براء أحمد، وأمي سهام، لكن من أنتِ؟ لا أعرفك!

- من حقّكَ أن تنسى، لقد كنتَ طفلًا صغيرًا.
- من أنتِ؟ هل تعرفينَ أمي؟!
- تعالَ براء؛ لنذهب إلى مكانٍ ما، فلديّ الكثير لأخبرك به.

تمكّن الفضول واللهفة من براء، فتبِعها في صمت مستغربًا.

تجلِسُ على كرسيٍ قبالته، تتفرّسُ ملامحَ وجهه، كشخصٍ وجدَ ضالّته بعد سنين.

- إذن ما القصة؟!
- أعرفكَ بنفسي أولًا، أُدعى إيمان، أمّ شهد، عمري خمسٌ وخمسون سنة، كنت أمتلِكُ معملًا للخياطة منذ زمنٍ بعيد، وأعرفُ أمّكَ أيضًا.

ما أن سمِعَ البراء باسم أمه حتى اتّسعت عيناه وحدّق فيها متلهفًا إلى سماعِ المزيد.

- أكملي أرجوكِ.
- في يومٍ من أيامِ الشّتاء الباردة، جاءت امرأة في الصباح الباكر إلى المعمل، تحمل طفلًا رضيعًا بين يديها يبدو حديثَ الولادة، وشكله غريب، كانت ترتدي ثيابًا بالية، وألحّت عليّ بطلبِ عمل في معملي، رقّ قلبي لحالها ولطفلها.

أدْخَلتُها المعمل، وضعتُها بجانب المدفأة، ثم سألتُها عن قصتِها، شعرت أمّكَ بالأُلفة، أخذت أمك نفسًا عميقاً كمن يستعدُّ لخوضِ حرب، قالت:

- أنا سهام، عمري خمسٌ وعشرون سنة، تزوجتُ قبلَ سنتين، زوجي أحمد المحامي، كنّا زوجين سعيدين حدّ السّماء، ذات ليلة عادَ من العملِ واجمًا حزينًا، أخبرني ليلتها كلامًا غريبًا، قال لي:
- أنا أحبّكِ سهام، سامحيني إن أخطأتُ في حقّكِ يومًا، هل أنتِ راضية عنّي؟

استغربتُ سؤاله، أخبرتُه:

- ما بكَ أحمد أنتَ لستَ على طبيعتك؟

قال لي:

- لا شيء يدعو للقلقِ عزيزتي.

لكنّ قلبي لم يطمئنّ، كنتُ أعلم أنّهُ منذُ فترةٍ استلمَ قضيةً كبيرةً، تدينُ أحدَ المسؤولين في البلدِ، فكانَ لا ينامُ اللّيل، لم أستطعِ النّومَ تلكَ اللّيلة، كان قلبي يدق في الدقيقة ثمانين وجعًا، شعرتُ بحركاتهِ، لم يَغمَض له جفنٌ قطّ، قامَ ليصلّي بضْعَ ركعاتٍ سجدَ فيها وأطالَ السّجود، ثم ارتدى ملابسه على عجلة، قمتُ لأسأله بتعجّب:

- أحمد، أين تذهب في هذا الوقت؟!

لم ينبس ببنتِ شفة، ثم أوصاني بنفسي كثيراً حتى شعرتُ أن الأمور ليست على ما يرام بل تزدادُ تعقيدًا معه، دقّت الساعة الثانية بعد منتصفِ اللّيل، وخرجَ مهرولًا في أَشّدِ المطر الغزير وأنا أبكي وأصرخ باسمه، تلبدتِ السّماءُ فجأة وازدادَ هزيمُ الرّعد، والبرقُ يزمجرُ كالأسدِ الجائع، شعرتُ أن السماء لا تبشّرُ بخير، بل بدت حزينةً غاضبة، مضى ذلِكَ اليوم، انتظرته طوال اليومِ على الشّرفةِ، وأعددت طعامه المفضّل، لكنّه لم يأتِ، انتظرت اليوم الثاني والثالث ولم يأتِ، جاء اليومُ الرّابع فشعرت بألمٍ فظيع وغثيان، ذهبت للطبيب، باركَ الطبيب لي، فاستغربت منه، وقال لي مبارك، داخلَ أحشائك يقطنُ طفلٌ، على الأرجح أنّه صبيّ، كانَ الخبرُ كالصّاعقة، لم أدرِ ما أصنع، هل أشعر بالفرح؛ لأنّ أحمد يحلمُ بهذِهِ اللّحظة ؟ أم أبكي لأنه لم يعُد بعد؟

كنت أعدّ الدّقائق والثواني، على قيد الأمل، إلى أن جاءَ اليوم المشؤوم الذي جاء فيه أحد وأخبرني، زوجُكِ حُبِسَ من قبل أمنِ الدولة، وقيلَ بأنّه قد أعدم شنقًا؛ لتدخُلهِ في أحد المسؤولين، لم أعلم كيف استطعت شكره على أن كلّف نفسه وجاء ليخبرني، وأغلقتُ الباب، اعتدتُ البكاء، لكنّه كان هذه المرة مختلفًا، كانَ البكاءُ يخرج من قلبي حتى تقطّعَ نياطه، وجفَّت عروقه، مغشيًّا عليّ من هول الحدث، من فكرة الوحدة، من أن أواجه الحياة وتواجهني بقلبٍ واحد، وكتفٍ واحد، من همجيّة الحياة وعنفوانها، التي تهون لما يحملها اثنان، أما الآن ! فكيف؟!

لولا جارتي التي جاءت تطمئنّ عليّ مساءً ونقلتني إلى المشفى؛ لأني كنت كالجسد بلا روح، أخبرني الطبيب أن تلك الصدمة قد تؤثر على جنيني وطفلي، ارتعدَ قلبي خوفاً لم يبقَ لي من أحمد سوى طفل من صُلبه، سأعيشُ لأجله.

حتّى جاء اليوم الذي وضعت فيه طفلي وفلذة كبدي براء، أحسست بشيءٍ غريب عندما وضعته، لم يكُن كأيّ طفلٍ آخر، كانت عيناهُ بعيدتين قليلًا عن بعضهما، ووجهه مليءٌ بالتجاعيد، صدمتُ لوهلةٍ وتذكّرتُ كلامَ الطبيب يومَ حذّرني من الصدمة التي وقعت بها، لكن عزمتُ بداخلي على أنْ أجعل هذه الغرابة تتميّز، وسأجعله صورة طبقَ الأصلِ عن والده الذي تمنى أن يأتي اليومُ الذي سيحضنُ فيهِ ابنه، وهكذا ملأ براء حياتي وبعضَ الفراغ الذي كان يخيّمُ عليها، لكن كانت هناك مشكلة، لم يكن هنالك مصدرٌ دائم للمال، فمال أحمد زوجي الذي تركه بدأ ينفد شيئًا فشيئًا، إلى أن اشتريتُ البارحة حليبًا لبراء بآخر دريهمات

كنت أملكها، لذلك خرجتُ منذ الصباح أبحثُ عن عمل؛ كي لا يموت ولدي وفلذة كبدي من الجوع، وسألتُ بين الطرقات، ودلّوني عليكِ، منذُ رأيتُكِ التمستُ فيكِ نظرةً حانية، لذا أتوسّلُ إليك، أريدُ أنْ أعملَ عندكِ حتى لو خادمة.

إيمان:

- رقّ قلبي وكانت عيوني تبكي في تدفقٍ وصمت لحالِ هذه المرأة المسكينة التي عانت كثيراً، ورحّبت بها للعمل على الفور، ولم أرَ منها إلّا التّفانيَ والإخلاص، كانت تعمل وتكسبُ من عرقِ جبينها.

قاطعني براء قائلًا:

- إلامَ كل هذي الآلام التي احتملتها أمّي وواجهتها الحياة سخطًا، من غير رأفة نتيجة سبيل أبي الشريف!

إنّه الصّدق، إنّها ذروة الأشياء التي تطيح بك إلى الهاوية، تفانيك بالإخلاص في زمن المحسوبية، المحبة في زمن البشاعة، بات كل ما كان رُقيّا لعنة!

أبي على خُطى شريفٍ صان مهنته وأنا على خطى أبي، مهما تكلف الإنسان في السّير، المهم ألا يسقط مع كل ساقط، المهم دائما أن تصنع مهنتك بمبدئك لا أن تصنعك هيَ تبعا لهواك!

ذُهِلت إيمان من بلاغة كلماته وحنكته وذكائه من بين عباراته، حتّى بدا ذلِكَ جليًّا على وجهها.

أكملت قائلة:

- يكفي اليوم، نلتقي بلقاءٍ آخر إن شاء الله، ودّعها وأعطاها رقم هاتفه الخاص وهو ممتلئ بالدهشة، كيف حدثَ كلّ هذا سريعًا!

في تلكَ اللّيلة جلس براء في غرفةٍ معزولة من بيته مليئة بصناديقَ قديمة، كان يبحثُ عن شيءٍ ما، ويبدو أنّهُ مهمٌ جدًّا، أفرغ الصّندوقَ الأول، وجد في آخره نصفَ صورةٍ مُمَزّقَةٍ مُهترِئة، ما أن نظَرها، حتّى تحركتِ المشاعرُ داخل صدره، كانت صورتَهُ وهو بثيابٍ باليةٍ في الصّفِّ السّادس، وكما قضتِ العادة، في آخر يومٍ تُلتَقَطُ الصّورُ التذكارية لكلِّ الطّلاب، كانوا ينظرونَ إليه نظرةً مستهجنة، تذكر براء ذلكَ المشهد، يومها قال أحدهم:

- يستحيلُ أن آخذَ صورةً يجمعني فيها وحشٌ قبيح، وآخر يقول:
- هذا المسخُ سيشوّهُ الصّورة، شعرَ براء بالغصّةِ داخل قلبه، ونيرانُ تحرق صدره، امتلأت عيناهُ دموعًا حارّة لو سُكِبتْ على جبل لأذابته!

التُقِطت صورة أثناء هذا المشهد لتظلّ بصمة عار في رأسه وعقلهِ وكيانِه!

وها هو بعدما تذكّرَ أخذَ يقطّعُ الصورةَ إلى أشلاءٍ متناثرة، وكأنّ الصورة كانت نافذةً فُتِحت عبر الزّمان، فيطلُّ عليها بعد أن حاولَ نسيانها، وإلقائِها في مقبرةِ قلبه.

رمى براءُ الصورةَ في سلّةِ المهملات، وكأنهُ يحاوِلُ التّخلّصَ من الذّكرى داخِله.

أكمل البحث، فتحَ صندوقاً آخر، كانَ على وجههِ ألبومٌ منَ الصّور، أخذَ براء نفسًا عميقًا، وبدأ بفتحه، كانت في الصّفحةِ الأولى بعضُ الصّور لبراء وهو في المدرسة، من الصّفِّ الأول حتّى السّادس، كانَ يقلّبُها في اهتمامٍ وصمتٍ ظاهر، لكن من الدّاخل كانت تمرّ الذكرياتُ كمشاهِدَ سريعةٍ ومؤلمةٍ في رأسهِ كرياحٍ عاتية، استهوته صورةٌ له في مكانٍ لم يتعرّف إليه، كان بعمرِ الثّالثة، كُتِبَ على ظهرها «براءُ في معملِ الخياطة»، سمعَ ما يدلُّ على الخياطةِ حتّى لمعت في رأسهِ صورةُ تلك المرأة التي قابلها في الصّباح، أمسكَ هاتفه وضغطَ على رقمها واتّصل.

براء: .....(يرن، يرن)

شهد: مرحبًا

- مساء الخير، هل السيّدة إيمان هنا؟
- مساءُ النّور، سأنادي أمّي حالًا.

إيمان: ألو..

- مساءُ الخير، أنا براء.

إيمان: أهلًا براء، بمَ أساعدك؟

براء: أريدُ منكِ معروفًا.

إيمان: تفضّل أنا في الخدمة.

براء: كنتِ قد أخبرتني أنَّ أمي قد عملت لديكِ في معملك.

في الحقيقة أودُّ أن أعرف عن أمّي أكثر..

إيمان: لكَ هذا براء، متى نلتقي؟

براء: ما رأيكِ بعد غدٍ في الرّابع عصرًا؟

إيمان: حسناً، تمّ أقفلتِ الخط.

عادَ براءُ إلى الأكوامِ التي كان بينها، وتابعَ تقليبَ الصّور والغوصَ في الأعماق، مرّ على صورةٍ لفتت انتباهه، كانت أمّه تبدو شابّةً جميلة، ترتدي فستانًا أحمر اللون، مُزيّنًا بحزامٍ ذهبيٍ رفيع، وترمي بخصلاتِ شعرها على كتفيها، وتضعُ عليه دبّوسًا فضّيًّا على شاكلةِ فراشة جميلة، وتمْسِك بيدها يدُ رجلٍ مهندَمٍ يرتدي بدلةً سوداء، وربطة عنقٍ حمراء كا فستانها، وشعره مصففّ بطريقةٍ مرتّبة، ولحيتهُ مهذّبة، علِم براء أنّ هذا أبوه، نظَر إليهِ طويلًا؛ يتأمّلُ شكله، يتلمّسُ على وجهه، شعرَ بشعورٍ غريبٍ لم يعرف ماهيّته، شعورٌ يشبهُ الحنين، لم يعرف براءُ معنى الأب فقد حُرِمهُ قبْلَ أن يولد، خُيّلَ إليه، كيفَ سيكونُ الأمر لو كانَ والدهُ حيًّا بجواره، راودَهُ شعورٌ أنّهُ ما يزالُ على قيدِ الحياة، أكمَلَ رحلتَهُ في البحث، رأى الكثير من الصّور لأمّهِ وأبيه، والتي إن دلّت على شيء فهو عظيمُ المحبّة بينهما، كانا زوجين سعيدين.

تَعِبَ براء من استرجاعِ كلّ تلك الذكرياتِ في ليلةٍ واحدة، والسّاعة تجاوزت الواحدةَ بعدَ منتصفِ اللّيل، قرّر النّوم كي يستيقِظَ باكرًا، لديهِ غدًا قضيّةٌ جديدة.

على صوتِ المنبّهِ استيقظَ براءُ والنّعاس يأبى مفارقته، سمع المؤذن يقول:

- حيّ على الصلاة، حيّ على الصلاة.

هذا نداء من الله في بيتِه، إنّه حيّ على الصّلاة، أقبلْ على الصّلاةِ وصلِّ.

صلِّ؛ حتّى تُغفرَ ذنوبك، صلِّ حتّى تزولَ همومُك، صلِّ حتى تزولَ كُرَبُك، صلِّ حتّى تصِلَ تكبيراتُك عنان السّماء، صلِّ بحبٍ لربِّ الحبّ.

- الصلاةُ خيرٌ من النّوم، الصّلاةُ خيرٌ من النّوم.

هذا نعاسٌ من فعلِ الشّيطان، قُم واتركْ فراشَك، الدّافئ، قُم واسعَ في دفءِ قلبِك، عمّرهُ بالإيمان، احْفظْهُ بالقرآن، كيْ لا تغزوكَ الأشجان، سيشهدُ الزّمانُ والمكان، على صلاتِكَ خلفَ الإمام، بكلِّ حُبٍّ واحترام، حتى يملؤك الأمان.

قامَ على عجلٍ وصلّى صلاتين، كانت الأولى فريضة، أمّا الثانية، فهي عن قلبِ أمه، يُقال إن عملَ الإنسانِ ينقطِعُ بعد موتِه إلا من ثلاثٍ، إحداها، ولدٌ صالحٌ يدعو له، كانَ براءُ يدعو لأمّه قبل نفسه، ويهديها مسكَ القرآن كل صباحٍ.

ساعاتٌ من العمل الدؤوب على جهازه اللابتوب، يُعدّ تقاريرَ تخصّ القضيّة التي سيمثلها اليوم أمام المحكمة، أنهى آخر سطوره، ووضع توقيعه وشعرَ بالإنجاز والفرحة؛ لأنه يتقدّمُ شيئًا فشيئًا، ويتغلّبُ على عائق شكله.

في المحكمة كان براء يقفُ بكلِّ شموخ، يُنْطَقُ بالحقِّ على لسانه، كانَ الخصمُ المقابل له شابٌّ يحدِّقُ به بتعجّب، لم ينتبه له براء، بعد انتهاء الجلسة، خرجَ منتصراً كعادته، أضحى اسم براء في عالم المحاماة يلمعُ عاليًا ويلوحُ بالآفاق، فهو يزداد شهرةً يومًا بعد يوم، لم يعد شكلُه يشكّل عائقًا أمام أحد، لكن بعد هذه الجلسة ناداه أحدهم من خلفه:

- براء!

التفت براء إلى مصدر الصّوت.

- أنتَ براء، أليسَ كذلك؟!

ذُهِل براء عندما رأى أحد زملائه في المدرسة هنا، بعدَ هذه السنوات.

وقفَ الشابّ يحدّقُ ببراء كالتّائه:

- لكن كيف؟!

تبسّم براء ابتسامة سخرية:

- براء الذي كان منعوتاً بالوحشِ أصبَحَ محاميًا، قلبَ عدلُ السماءِ الموازين، لا أذكُرُ إلا شخصًا ضعيفًا غريبَ الشكل، أمضينا حياةَ المدرسةِ سخريَةً عليه، لم يمضِ يومٌ إلا ونعتناكَ فيهِ بالوحشِ أو المسخ، وها هو المسخُ يُصبِحُ محامياً.

بقي براء صامتًا واجمًا لا تدلّ ملامحهُ على شيء.

- أكملَ الشابّ، أنا حقًّا مذهولٌ بكَ وبشجاعتك، لقد استطعتَ أنْ تحقّقَ حلمك، أذكر اليومَ الذي سألتنا فيه المعلمة عن أحلامنا، قلتَ: سأصبح محاميًا، سخرنا منك، صدّقني يا براء، لا أتمنّى شيئًا الآن غيْرَ أن تسامحني.

أطالَ براءُ في صمتِه وكأنَّ نافذةَ ذكرياتٍ جديدةٍ أطلّت على الماضي قد فُتِحتْ من جديد، تذكّر ذلك اليوم الذي سألت فيهِ المعلمة عن أحلامِ طلّابها، أجاب بعضهم: معلّم، طبيب، مهندس، نجّار، إلى أن أتى دورُ براء الذي قال بصوتٍ خافت، أريد أن أُصبِحَ محاميًا، سَخِرَ كلّ طلاب صفه منه وأخبروه: من سيأتي ويطلب المساعدة من وحشٍ مُخيف؟! شعرَ بالغصَّةِ تسري داخل عروقِه، عادَ إلى أمّهِ باكيًا، حضنته وأخبرته:

- لا تكترث لهُم بنيّ، أنتَ قويّ، أنا أعلمُ ذلك، ستكونُ محاميًا لامعًا يتردد اسمُهُ في كلِّ زمانٍ ومكان، مثلَ والدِك تمامًا.

أفاقَ براءُ على نداءِ الشابّ الواقفِ أمامَه.

نظَرَ لهُ براء نظرةً غامضة، ثم استأذنَهُ وذهب دون أن ينبس بحرفٍ واحد.

عادَ براءُ تَعِبًا من هذا اليوم المليء، صلّى صلاة العصرِ في بيتِه، لَمَحَ ورقاتٍ مُهترئة غطّى الزّمانُ على لونها الأبيضَ حتّى صارَ أصفرَ يميلُ إلى البنّيّ، كانت بجانب الألبوم الذي كان يتصفّحُ فيه ليلةَ أمس، أمسكها وفتَحَ الورقةَ الأولى، كُتِبَ فيها بخطِّ اليَد:

إلى ولدي براء..

- حبيبي براء، اليوم، تُتِمُّ عامك الرّابع، وكم أنا فخورةٌ بِك، أكتبُ هذه الرّسالة، ربّما ستقرؤها في يوم قد لا أكونُ متواجِدةً فيه.

منذُ وُلِدتَ يا براء وأنا أهبُ نفسي لك، لا أتذوَقُ طعامًا حتّى تشبعْ، ولا أنامُ حتّى تَغُطَّ في نومٍ عميق. بنيَّ براء: لم يكن شكلُك يشكِّلُ عائقًا لديّ، كنْتُ ولا زلتُ أراكَ الأجمل في ناظريّ، اسمعني يا ولدي، الحياة لا تعطينا كلّ ما نُريد، ولا تدورُ وفقَ هوانا، فترةٌ ممزوجةٌ بالحلو والمرّ ولم نكن لنَشعُرَ بلحظاتها الجميلة لولا تلكَ اللحظات المريرة. بنيّ: الدّنيا دنيّة في عينِ كلِّ من علمَ حقيقتها، وجنةٌ في كلّ من قدّسها. أيّ بنيّ: أكتُبُ كلماتي على أملِ أن تُؤَثِّرَ فيك، وعلى يقينٍ بأنها ستفعل، عندما تغيّرُ نظرتكَ للأشياء من حولِك، ستجدُ كلَّ شيءٍ حولك وقدْ تغيَّر، أحبَّ ذاتَكَ وقدّسها، كنْ للخيرِ منارة، اسعَ في حياتِك، فما أصبحَ أحدُهم عظيمًا من لهوٍ أو نوم. أيّ بنيّ: أرى فيكَ إنسانًا عظيمًا نقيًّا من الداخل، تكسوه همةً كالجبال أيّ بنيّ: إنّي أحبك وأنتظرُ اليومَ الذي أراكَ فيهِ مثلَ والدك، محاميًا عظيمًا..... سهام والدتُكَ

كانَ براءُ يقرأُ الورقةَ والدموعُ تملؤها، حتّى أصبحَ لا يُفهمُ منها حرفٌ واحد، شعرَ براء بالحنين الجمّ لأمه، ودَّ لو يحضنُها ويَتَشبّثُ بها، ودَّ لو يُمسِكُ بيدها يقبّلُها، لكنّها ميّتةٌ، وهل يعودُ الأمواتُ متى ما أُضرِمتْ نارُ الشوقِ في صدورِ الفاقدين؟!

سجدَ براءُ على سجّادةِ الصّلاة يدعو اللهَ بكلِّ خشوعٍ وحُبٍ، يدعو لأمِّه، لمَعَت في خيالهِ صورةٌ لأبيه، كتلكَ التي كانتْ في الألبوم، لم يعرف بِمَ يدعو له، فقال:

- اللهم إن كانَ أبي حيّاً فاجمعني به، وارحمه إن كانت روحُهُ بين يديك.

اليومِ التّالي..

السّاعة الرّابعة عصرًا، في الحديقة، تجلِسُ قربَ النّافذة بصمتْ، تراودها خيالاتٌ وأفكارٌ كثيرة.

- براء: مساءُ الخير، آسفٌ لتأخُّري.
- إيمان: مساء النّور، لا عليك، لم آتِ أنا إلّا منذُ دقائقَ قليلةٍ.
- براء: حسنًا، آسفٌ لإزعاجِك، لكنّني في الحقيقة أشتاقُ أمّي كثيرًا، أودُّ أن أعرفَ ولو القليلَ عنها.
- إيمان: أنتَ تُشبِهُ أمّكَ كثيرًا براء.

لمعت عيناه.

لا يوجد أجملُ من أن يُقالَ للإنسان تُشبِهُ أمّك، يشعر بالفخرِ الشديد، كأنّهُ يأخُذُ قطعةً من الجنّة.

استمرت إيمان في حديثها تخبرهُ عن أمه، وما زادهُ الكلامُ إلّا حُبًّا عظيمًا لها، كانَ وما يزالُ يراها أفضَلَ امرأةٍ في العالم، كانت بيضاءَ القلبِ، لطيفة، تجعلُ كلَّ من يراها يُحِبُّ التكلُّمَ معها، كأنها تنطِقُ الجواهِرَ والماس.

صمتت إيمان قليلًا وبدا الحزنُ جليًّا على وجهِها.

- ما الأمر؟!
- كانتِ الأمورُ على ما يُرام إلى أن مَرِضت أمُّك، قَسَت على نفسها كثيرًا، لم ترضَ الذّهابَ للطبيبِ كي توفّرَ المال.

قلتُ لها:

- أرجوكِ سِهام، اذهبي للطّبيب أنتِ في حالةٍ مُزرِية.
- أنا بخيرٍ إيمان، وعكةٌ صغيرةٌ ستزولُ عمّا قريب.
- منذُ فترةٍ وأنتِ هكذا، حالتُكِ تزدادُ سوءاً يومًا بعد يوم، اذهبي أرجوكِ.
- لا أريدُ إيمان، يجبُ أن أُوَفِّرَ المال، لأن براء سيخرجُ في رحلةٍ مع زملائه، لن يكونَ مختلفًا عنهم بالتخلُّفِ عنها، يجبُ أن أُضاعفَ جهدي كي أجنيَ المالَ اللّازم لهذهِ الرّحلة، لا أريدُهُ أن يشعُرَ بالنّقص.
- أنا أعدكِ سأدفعُ لكِ لرحلةِ براء، لكن تعالَي نذهب للطّبيب.
- كلّا، منذُ مدّة والمعملُ في حالةٍ سيئة، لا شكّ أنّكِ تخسرين المالَ كثيرًا لإعادتِه كما كان.
- أعلم أنّ المعمل بدأ يخسر، لكنّ مفاتيحَ الرّزقِ بيدِ الله، ما دمنا نكسِبُ بعرقِ جِباهِنا، حاشاهُ أن يترُكَنا.

وهكذا لم ترضَ أمّكَ أن تذهبَ للطّبيب، إلى أن استيقظتْ بعد أيّام؛ لا تستطيعُ النهوضَ من الفراش، ذهبْنا لزيارتها، وأحضرنا الطبيبَ على الفور، لم يستطِع تشخيصَ مرضها، قالَ: يبدو أنَّ وضعها خطيرٌ جدًّا، يجِبُ أن تُنقَلَ إلى أقربِ مشفى في أسرعِ وقتٍ ممكن، نقلناها إلى المشفى وهُنا كانتِ الصّدمة لنا ولها.

قال الطبيب:

- تعاني من التهابٍ فيروسيٍّ حادّ، من الصّعبِ علاجه، وحالتها من المراحل المتقدّمة التي نادرًا ما تنجو منه، ولن تعيشَ طويلًا، حزنتُ عليكَ براء، لقد كنتَ تتلقَى صدمةً تِلوَ الأخرى، لم تكن تملكُ إلّا أمَك، وها أنتَ تراها مريضة، وبحالٍ يرثى لها، وربما تموتُ وأنتَ عاجزٌ عن فعلِ شيء.

تذكّرَ براءُ ذلكَ اليوم، كان سيلقي نفسَهُ من النّافذة، كان يصرخُ بصوتِ المرارة والألم، أمّتي!، أمي!، مع صوتٍ يتحشرجُ مع البكاء، أرجوكِ أمّي أنا احتاجُكِ.

تكرّرت اللقاءات بينَ براء وإيمان، أحسّت إيمانُ أنّ تعبَ سهام على ولدِها، لم يضِع سُدًى ولا هباءً منثورًا، بل خلّفت وراءها شابًّا قلّ أمثالهُ من شبابِ اليوم.

في آخرِ لقاءٍ لهما، قالت إيمان:

- منذُ أشهُرٍ ونحنُ نلتقي، وما وجدتُ فيكَ إلّا رجُلًا يُعتمدُ عليه، ونجاحاتُك تزداد شيئًا فشيئًا، أريدُ منكَ معروفًا يخصّ عملَك.
- تفضّلي خالتي، صدّقيني مهما فعلتُ لكِ لن أوفيّكِ حقّكِ، بسببِ ما قدّمتِهِ لأمي، أنا عاجزٌ عن شكرِك.
- كنتُ أحبّ أمك حبًّا عظيمًا، وأنتَ ورثتَ من محبّتي لها، أحبّكَ كابني، حسنًا براء، اسمعني.
- كلّي آذانٌ صاغية.
- كنتُ قد أخبرتُكَ أنّ لديّ معملًا للخياطة، كانَ كبيرًا ومشهورًا «تقولها بحسرة»، إلّا أنّه ذاتَ يوم بدأ يفقد شهرتَه، ويخسرُ المزيدَ والمزيدَ من المال، دونَ أسبابٍ جليّة، كانت ملابسنا تُوَزّعُ على كلّ المحال، إلى أن ظهر السبب، ويُقال:

«إذا ظهرَ السبب بَطُلَ العجَب»، لقد كانت إحدى العاملات تمسِكُ الثيابَ التي نصنعُها وتصنَعُ العيوبَ بها، منذُ أتت لم أرتَحْ لها، كانت ابنة مسؤول، وقد شعرتُ بكثيرٍ من العجبِ والدّهشة؛ كيف لابنةِ مسؤول بهذا القدر تأتي وتعمل في معملِ خياطة!

قالت لي:

- أهوى الخياطة وأودُّ تعلّمها، رحّبت بها، فأنا لم أردّ سائلًا يومًا بفضلِ الله، وكانتْ تتعلّمُ حقًّا، إلى أن شعرتُ بأنّ المالَ ينقُص، والمَحَالُ بدأت تشكو بأنّ ملابسنا مليئة بالعيوبِ ولا تصلُحُ للبيع، لقد شكَكتُ في أمرها إلى أن شعرتُ أن المعمل حقًّا يُفلِس، رأيتها ذاتَ يومٍ صدفة، تمسِكُ المقصّ وتقصُّ الثيّاب الجاهزة، التي تُباعُ للمحلّات، واجهتُها، أنكرَت في البداية !، وكيفَ يفيدُ الإنكار وفعلتْ فعلتها أمام عينيّ هاتيْن؟!، ثمّ بعدَ إلحاح، قالت بكلّ جرأة:
- أبي مسؤول يحبُّ المال، ورثتُ منه هذا، فحبُّ المالِ يسري داخلَ عروقِنا، سأكونُ مِثله، وأجرّبُ هذهِ الأفعال.
- أنتِ فتاة مريضة، عديمةُ القلب والرّحمة، ألا ترَيْن العاملاتِ هنا يجنيْنَ قوتَ يومِهِنّ، من كَدِّهن في العمل، وأنتِ هنا بكل جرأة تقطعين مصدرَ رزقهن، كيف لنفسك أن تكونَ بهذهِ الدّناءة؟!

أنتِ مطرودة وإيّاكِ أن تعودي إلى هنا أو أرى وجهكِ ثانيةً!

- تحلُمين، سأجعلُ والدي يشكو عليكِ، سأجعلكِ تندمين.

في الحقيقة يا براء لقد فعلت تلكَ الفتاةُ ما قالتْهُ، رفعت بي قضيّة، بتهمةِ المعاملةِ السيئة، وأنكرتْ أفعالها المشينة، وعندما علِموا أن والدها مسؤول، ربِحت القضيّة على الفور، لا يخافونَ الله، يعبدون المال والمنصِبَ كالمجوسِ للنّار، أفلسَ المعمَل، كانَ هذا منذُ سنةٍ على الأقل، وماتَ زوجي في تلكَ الفترة، وكانت أسوأ لحظاتٍ أمرُّ بها.

كوّنتُ نفسي من جديد، من الورثةِ التي ورثتها من زوجي.

أما تلكَ الفتاة فأنا متأكدةٌ أنّها ما زالت تفعلُ ما فعلتهُ بي بالكثيرِ من الأبرياء.

- للأسفِ الشّديد لا يمكنُ التّخلّص من الأوغاد عن طريقِ الانتخابات، لأننا لم ننتخبهم أصلًا.
- أريدُ رفعَ قضيّة لأستردّ حقّي وحقّ كل من ظلمتهُ وأبوها، والدُها يا ربّاه، لم ينجُ أحدٌ من شروره، مثلُ هؤلاءِ لا مكانَ لهم غير الحظيرةِ في غياهبِ السّجن.
- حسناً زوديني بالمعلوماتِ اللّازمة، وأعدكِ أن أعملَ في هذهِ القضية، حتى تكسبيها.
- حسناً براء، أعتمِدُ عليك، تعالَ غدًا إلى بيتي، سأعطيكَ أوراقًا ثبوتيّة، للعمل، وأوراقًا تُثبتُ خسارتي الكاذبة في تلكَ القضية.
- حسنًا، إن شاء الله.

في اليومِ التّالي كان براء يدق الباب دقّاتٍ متأنية متتالية..

شهد: سأفتحُ حالًا.

براء: مساءُ الخير.

ذُهِلت شهد من هذا الذي يقفُ أمامها، راعها شكلُه، كان ذلكَ جليًّا على وجهَها، هل بقِيَ أحدٌ لم يَخَف أو يسخر من شكله؟! نادت أمها بصوتٍ راجٍ، أتت أمها وانزعجت من شكلها وهي خائفة هكذا.

- أنا آسفة براء، تفضّل.
- لا عليكِ، أنا معتادٌ على هذا الأمر.

جلست إيمان مع براء في غرفةِ الجلوسِ الأنيقة.

كما ترى، أعيشُ وحدي وابنتي، زوجي رحمهُ الله، كان يديرُ مصنعًا لموادّ البناء، البيتُ فارغٌ بدونه،

- رحمهُ الله.
- لقد جهزتُ لكَ كل ما تحتاج من أوراق ودلائلَ وقضايا.

أخذَ براءُ الورق واستأذنها بالذّهاب، عاد إلى بيته، وضع الورقَ أمامهُ وبدأ يعمل، جمعَ كلّ ما قد يحتاجه من ناحية إيمان، لكن يجبُ عليهِ البحثُ جيدًا في أمرِ الفتاةِ وأبيها.

شعرَ بالإنهاك، ذهب واستغرق في نومٍ عميق.

في الصّباح استيقظ براء باكرًا وبدأ يجمع الأدلة ويكشفُ الحقائق، لم يكُن الأمرُ سهلًا، فهو محميٌّ من الحكومة، التي لم تدع أهوجَ إلا وجعلته رئيسًا، ولم ترَ ماكرًا ومحتلسًا إلا جعلتهُ أمينًا، هذا ما يحدثُ في الغابة التي يُقتل فيها الأسدُ قسرًا على يدِ الذئبِ المحتال، ويسجّلُ الحاضرونَ غائبين وبيعت الأرواح، واستبيح الشّرف.

مضى أسبوعان، جمع براء ما يحتاجه للقضيّة، كم تعجّب من أفعالِ هذا الرّجل، هل يُعقلُ أن يكونَ حبُّ المالِ تبريرًا لكلّ تلكَ الجرائم؟!

حبّ الجاهِ والمالِ والمنصب جعلتهُ مفترسًا ينظر لفريسته نظرةً لا تميّزُ بين أبيضَ وأسود ما دام سيأكلها، حتّى لو دمّرَ الغابة في اللحاقِ بها.

يقفُ أمام القاضي بكلّ هيبة وعزّة، يتكلّم بالنّيابة عن إيمان، فهو محاميها.

تعجّبَ الحاضرون من جرأةِ براء في إدانة هذا المسؤول الكبير، حذّروه من فعلته، لأنه سيتورّط معه.

لم يكترِث براء، فصاحبُ الحقّ لا يخافُ في اللهِ لومةَ لائم، ومتى ما وُجدَ حقٌّ وجبَ أنْ يظهرَ على أفواهِ أصحابه.

عندما حضَر المسؤول إلى المحكمة، قال:

- أُدانُ أنا، ومن ذا يجرؤ على ذلك، قيلَ لهُ ذاكَ المحامي، قال بنبرةٍ مليئة بالسّخرية، وفضائيٌّ أيضًا؟!

شعر بالغصّة براء، فعندما يتعلّقُ الأمرُ بشكلِه، يضعفُ من الدّاخل، لأن لا دخلَ لهُ في خلقِ نفسه، شجّعته إيمان قائلة:

- تذكّر كلماتِ أمّكَ براء، كانت كلماتُ إيمان كالماء العذبِ للظمآن، فاشتعل التّحدي والقوة داخل صدره، تكلّم بكل جرأة ووضوح، كان الحقُّ على لسانِهِ يخرُجُ تباعًا، كان كلُّ منْ في الجلسة -التي لم تكن الأولى فحسب- مذهولين من براء، كيفَ يدافع؟!، إنّهُ كالجبلِ في مهبّ الرّيح.

شعر ذاكَ المسؤولُ كريم أن وقعتهُ عويصة مع هذا المحامي، استعانَ بشتّى الطّرق لكي ينجو، لكن هذه المرّة كان براء قد افترَضَ كلّ أفعالِ كريم، فلم يفلح بالنّجاة ووقع في الشّبك!

بدأ القاضي النّظرَ في الدّلائل والبراهين التي قدّمها براء، وقد كانت كفيلة بأن تدخلهُ السّجنَ بضعَ أعوام، ثمّ بدأتِ السّجلاتُ تُراجَع!

وُجِدَ أنّ هذا الرّجل الشيطان، ارتكبَ عشراتِ الجرائم والأفعال المُشينة؛ بهدفِ الجاهِ والمنصِب، ولم يُرَ على مرّ الزمان أحد في جشعه وطمعه، لو عُرِضَ لهُ قتلَ طفلٍ مقابلَ المال لَقَتَله. كيفَ يمكِنُ للنّفسِ البشريةِ أن تكونَ بهذا السوء؟! تستعبِدُ وتقتلُ وترتكبُ الفواحش، وتتجبّر ويصيبها داءُ الظُلم!

سُجِنَ كريمُ، وتمّ إحضارُ ابنتهِ للاستجواب.

وقفت إيمان قبالتها في المحكمة، كأن الماء والنّار اجتمعتا لإحداثِ كارثة ستطالُ الحجرَ والشّجر والبشر، كانت ابنة المسؤولِ عابسةً ذليلة، أمّا عينا إيمان، كانتا تلمعانِ ثقة وإيمانًا، كأنهما تقولان:

- لا بُدّ للحقّ أن يعلو مهما تلبّدت السّماء فسيأتي الفرج، وهذا وعدُ الله ماضٍ في كلِّ زمانٍ ومكان، لن يعلو الباطل، وستشرِقُ الشمسُ بالنّور.

كانت هذه القضيةُ نقلةً نوعيّةً في حياةِ براء، فقد وضعَ قدمَهُ على ميدانِ المحاماة، بكلّ ثقة، حتى أنّ وسائِلَ الإعلام أجرت لقاءاتها معه. سألته مذيعةٌ ذاتَ يوم: كيف تدين مسؤولًا بهذا الشأن العالي، وتربحُ القضيّة؟!

كان براء يجيبُ إجاباتٍ مقتضبة وغامضة؛ تنمّ عن مقدارٍ عالٍ من الذّكاء.

لم يدعْ براءُ مجالًا لكريم بالإفلات، كانت ضربة قاضية أطاحت به، وما أن رأت ابنته والدها يسقط، انهارت وسلّمت نفسها، اعترفت بكل الجرائم والاختلاسات وأفعالها الهوجاء.

حُكِمَ عليهما بالسّجن المؤبد مع دفع غراماتٍ مالية، وتعويضات لكلّ من آذوهم وسلبوا أحلامهم، لحُسنِ الحظ أنّ كريمَ كان يوثّقُ أفعالَه المشينةَ وجرائمه على أنّها انتصارات، ممّا سهّل أمر حصرِ الذين ظُلموا من قبله ودفعِ التّعويضات.

عادتِ الحقوقُ إلى أصحابها وإن أخذتِ الكثيرَ من الوقت، لكنّها عادت، وأغلِقتُ القضية إلى الأبد.

وقفت إيمان فخورةً ببراء، إنّه رجلٌ يُعتَمدُ عليه في الأوقاتِ الصّعبة، شكرتهُ ودعت لهُ بصلاحِ الحال والنّفسِ.

- لا تقطعنا من الزياراتِ براء، متى ما احتجتَ لشيء ستجدني بجانبك.
- حسناً خالتي.

كان براء كعادته بعد كلّ نجاحٍ باهر يذهبُ إلى قبرِ أمّه.

لكن..

- سيّد براء، سيّد براء.

براء: ما الأمر؟! بِمَ أساعِدك؟!

الشرطيّ:

أنا الضابط أُسامة، من قسمِ المباحث، تولّينا البحثَ في الجرائم التي وثقها كريم، وفي الحقيقة أودّ إخبارَكَ بشيءٍ قد يخصّك.

دقّ قلبُ براء بسرعة البرق، شعر أن شيئًا مهمًّا سوفَ يحدثُ الآن.

- ما الأمر؟ تكلّم.
- اسمُ والِدِكِ أحمد منصور الكنانيّ، أليسَ كذلِك؟!

ازدادَ براءُ اضطرابًا عن ذي قبل، وبدا جليًّا على وجهِه.

- نعم، هذا اسمُ والدي، وأنا براءُ الكنانيّ.
- من القضايا التي رُفعت على كريم، قضيّة والدك، لكن استغلّ نفوذه وخرجَ منها كالشعرة من العجين، وأُلقِيَ اللّومُ على والدك لادعاءاته الكاذبة، وسُجِنَ طوالِ هذهِ السّنين ظُلمًا، وها أنتَ تستردُّ حقّهُ وحقّ كلّ من ظُلِم.
- والدُكَ حيٌّ يا براء.

إنّه شيء أشبه بالروحِ تُنتزَعُ من الجسد، كطلقة رصاصةٍ هوجاء على قلبِ ثائر، كمبضعٍ للجرّاحِ في جسدِ المريض، إنّه أشبهُ بلاجئٍ عاد يرى قريتهُ بعد سنين مضت.

- يا إلهي، تُرى هل يعلمُ بأن لديهِ ابنًا؟!، هل يعلمُ أنّ أمّي توفيَّت؟!
- لقد حقّقنا معه، يعلمُ أنّ زوجتهُ توفّيَت، فلقد تمّ إخباره عندما كانَ مسجونًا وهي لم تكن تعلمُ أنّه حيّ، ومنذُ ذلِك الوقت وهو في حالةٍ يُرثى لها، كان يعلّق نفسهُ بشعرةِ الأمل التي كان يستمدّها من بقاءِ زوجتِهِ تنتظره، وعندما انقطعت هذه الشّعرة، كأنّ روحهُ التي انتُزعت، وأضحى كالجسدِ بلا روح.
- هل يعلمُ عنّي شيئًا؟!
- لم يكُن يعلم؛ لكن مهّدنا لهُ الأمر كي لا تكونَ صدمة عليه، سألناه، ماذا لو كانَ لك ابن؟!
- أيا ليت، سيكون هنالكَ أثرٌ من زوجتي وحبيبَتي، ولكِن هيهات.

وبدأ بالبكاء، كانَ شديدَ التّعلّق بأمّك.

شعرَ براءُ باللّهفة العارمة والمزيج من الشّعور الذي لم يعرف ماهيّته.

- سيّد براء، والدكَ يقفُ خلفَ ذلِكَ الباب مع الشرطيّ بعد أن أخبرناه عنك.

كادَ يغمى على براء لفرطِ الشعور باللهفة والحنين والشوق والكثير من المشاعر المختلطة، يُريدُ أن يراه، يمسِك يديه، يتحسّسُ على وجنتيه، يرى من كانَ قدوة له في عالمِ المحاماة كما زرعت فيه أمّه.

- أرجوكَ دعني أراه.. كان براء بغير وعي.
- اهدأ سيّد براء.

أشار بيدِهِ على شرطيٍّ آخر يقفُ أمام الباب، ليُفتَح في مشهدٍ بطيء كالموت، ظهرَ رجلٌ يرتدي حذاءً أسودَ، وبنطالًا أسودَ، وقميصاً أبيضَ، يتّسمُ بالهيبة، بدت عليهِ علاماتُ الكبر والتّعب، تعبُ السّجن الذي ما فَتِئ يُضعِفُ أقوى رجلٍ في العالم، كان وجهُه يحوي بعضَ التجاعيد التي حُفِرت من هولِ السجّان، أمّا شعرهُ كان أسودَ مغطًى بالأبيض، يشبُه الصّورةَ إلى حدٍ ما، لكن هنا فاقدٌ لصحته ونضارته التي كان يمتلكها، للوهلةِ الأولى صُعِقَ الوالدُ من شكلِ ابنهِ الغريب، لكن لم يكترث للأمر، وقف قبالة ابنه، كلٌّ منهم يتفرّسُ الآخر بنظراتٍ ثاقبة، نفسُ الفم والابتسامة، وبعضُ الملامح التي أخذها من والدته.

كان براءُ عاجزًا عن الحركة..

كيف؟! هذا والدُه حقّاً! ما معنى أن يمتلِكَ الإنسانُ أبًا، ما هذا الشعور، ماذا سأفعل؟!

ثم في لحظاتٍ، كانت تمرّ ستون ساعةً في الدّقيقة، ركَضَ والدُ براء من جهة، وابنه من جهةٍ أخرى، في مشهدٍ مُهيب، وكلّ من في المكان تسقُطُ دموعهم بلا استئذان، هذا شرطيّ يمسح دموعه بكمّه، وتلكَ امرأة جلست تبكي بصمت، كان حضنًا قويًّا، رجلًا لرجل، والدهُ الذي لم يرهُ قطّ!

مرّتِ الحياة في رأس أحمد منصور كخيالات سريعة، تتزوج، تُسجن، تموت زوجتك، تفقد الأمل بالخروجَ من غياهبِ السّجن، ثمّ تخرج، وتكتشفُ أنّ لديكَ ابنًا، بل والأدهى من ذلك أن ابنكَ هو المسؤول عن إخراجك، فهو محام مشهور ذو أخلاقٍ رفيعةٍ، وها هوَ يرفعُ اسمكَ عاليًا، هذا يُشبهُ عالم الأحلام والحكايات.

- أنا أحلم؟! بنيّ, ما أعذب هذه الكلمة، بنيّ، بنيّ: هل نحنُ الآن في حقيقة؟!
- أنتَ والدي وأبي وزوجُ امرأة لن تسعَ الأرض وما عليها حبّها لك، أنتَ أبي، أنا لا أصدّقُ شيئًا.

تعانقا ثانيةً وثالثة ورابعة وما زادهما العناقُ إلا محبةً وشوقًا.

وجدَ كل منهما ضالّته، عاشا سويّة في بيتِ براء الذي امتلأ دفئًا وحبًّا بعد مجيء الوالد، لتعودَ النّفوسُ إلى مواطنها حيثُ كانت، ورابطة الدّمِ التي مهما قست أو ابتعدت ستحنُّ إلى منشئها.

القصة الثالثة: أبواب مظلمة

تأليف: مصطفى حسن

الدولة: العراق

أبواب مظلمة

(١)

- تذكرة واحدة رجاءً.
- بأيّ قطار؟
- بغداد.

رفعَ رأسهُ ونظرَ إليها، فهذهِ عادتهِ، ينظر بتلهفٍ في وجهِ كل من يريد الذهاب لبغداد، مدينته، مسقط رأسهِ ووطنه..

لكنهُ عندما نظر إليها، نسي بغداد..

هذه المرةُ الأولى التي يقدمُ فيها شخصٌ على بغداد؛ فقد كانت شابة بالعشرينيات من عمرها، عكس ما يوحي صوتها، ذاتَ شعرٍ أسود متوسط الطول، وعيناها خضراء اللون، بيضاء البشرة وكأنها غيمة، ترتدي التنورة الطويلة، وسترة بُنية، تضع يدها على منصة الشباك، وأناملها بيضاء طويلة، رأى زيد بها بغدادَ أخرى..

- الاسم رجاءً.
- شروق.. شروق جمال.

كتبَ اسمها بتوترٍ وقطع التذكرة وأعطاها لها، وفي قلبهِ يقول (اسمٌ على مُسمى يا شروق).

تذكرَ بعينيها شروق بغداد حينما تطلُ أشعة الشمس على نهر دجلة، وتمتدّ لتداعب البيوت البغدادية.

جلستْ شروق على أحد المقاعد المخصصة للانتظار، وأعطت ظهرها لزيدٍ، وفتحتْ كتابًا وبدأتْ بالقراءة، بينما بقي زيد يعمل بغير انتباه، ويضطرب قلبه كلما قامتْ بتعديل خصلات شعرها، فهو منذ عملهِ في هذه المحطة منذ أربع سنوات لم تخطف امرأة قلبهِ مثلما فعلت شروق؛ ربما لكونها من بغداد، أو بسبب عينيها، فهو لا يعلم فقد ضاعَ بين ملامح وجهها وقامتها وصوتها.

تلقى زيد اتصالًا يخبرهُ بأن القطار سوف يتأخر ساعة، فقام ونادى بالسمّاعة خبر تأخر القطار، وعيناه على شروق، التي قد توترتْ عندما سمعت زيدًا، رجع ليجلس على كرسيه ونظرَ في سجلهِ ليدقق الأسماء والقوائم.

- عذرًا.. لكن لِمَ سيتأخر القطار؟

رفع نظره، كانت شروق هي من سألت، فقال:

- إنه عطلٌ بسيط يا آنسة، لا تقلقي، سوف تصلين إلى بغداد لكن فرق ساعة لا أكثر.

- لا، وجهتي ليستْ بغداد، أريدُ أن أنزل في الحلّة.
- آها! الحلّة.. حسنًا إذًا ستصلين متأخرة بنصف ساعة فقط، تفضلي اجلسي هنا، هل تريدين أن أسكب لك كوب شاي؟
- لا، شكرًا، لا أريدُ إتعابكَ.

واستدارت لترجع في مكانها دون أن تترك لزيد فرصة بالتكلم. بقي زيد يفكر في نفسهِ؛ هي ليستْ من بغداد لكنها بغدادية الملامح، رموشها بغدادية، كل شيء فيها يوحي بأنها من بغداد.

قام من كرسيهِ ليشعل النار تحت إبريق الشاي، انتظره ليغلي ومن ثم صبَّ كوبين من الشاي، توجه نحو شروق وقدم لها كوبًا وقال:

- تفضلي، لعلّهُ يُخلصكِ من البرد قليلًا، فالبصرةُ بردُها قارص. في الصيف شديدة الحرارة وفي الشتاء شديدة البرودة.
- شكرًا لكَ، لم أكن أريدُ أن أتعبكَ.
- لا، أيُّ تعبٍ هذا، على العكس.

بقيا واقفين يشربان الشاي دون التكلم مع بعضهما، سرقَ بعض النظرات منها، إلى أن وقعتْ عيناه على عينيها، نظرا لبعضهما قليلًا وكلٌّ منهما استدار بعينيهِ.

فتحتْ كتابها، ثم قالت وهي تُمعن النظر في حروفهِ:

- حقًا إن البصرةَ شتاؤها بارد.
- هل تريدين الدخول إلى الكابينة؟ لديّ مدفأة نفطية بالداخل.
- وتركتها لتجيء وتقف بالبرد هنا؟
- لا أرى في هذا أية مشكلة، هيا تعالي وادخلي من البرد، وإلا فستمرضين.

تقدم أمامها وفتحَ الباب لها، دخلت شروق وقد انبهرت من نظافة وترتيب المكان، وما لفت انتباهها هو الكتب الموضوعة على الرف المجاور لكرسي زيد.

كان هنالك مقعد آخر للجلوس، لكن زيدًا أزاح الكرسي لها لتجلس، وهو تقدم ليجلس على المقعد.

لم يتكلما وبقيت تشرب الشاي وتتنقل ببصرها في أرجاء الغرفة، نظرتْ للكتبِ فسألتهُ عنها، فأجاب بأنها كُتبٌ فكرية واجتماعية، ثم أخبرتهُ أنها مُهتمة بالكتبِ أيضًا، وبقيا يتجاذبان أطراف الحديث ويتناقشان بأمور بسيطة إلى أن حان الوقت ووصل خبر وصول القطار لزيد؛ تكدرَ وقال لشروق بأن القطار سيصل خلال خمس عشرة دقيقة، قامت لتهيئ نفسها وأشياءها، وخرجتْ

من الكابينة لتنتظر القطار، أخذ زيد أحد الكتب وفتح الصفحة الأولى وكتبَ فيها إهداء بسيط (أتمنى لكِ قراءة ممتعة. زيد) مع توقيعهِ، ومن ثم خرجَ وراءها، فقال:

- تفضلي أيتها القارئة.
- ما هذا؟
- أحدُ كُتبي، اعتبريه هديةً بسيطة مني.

فتحت الصفحة الأولى، قرأتْ الإهداء ثم قالت:

- شكرًا لك يا زيد، اسمٌ مميز كصاحبهِ.

ابتسم زيد بخجلٍ وبقي بجانبها حتى أتى القطار، حملت حقيبتها واتجهت نحو سلالم القطار التي كانت عاليةً عليها ما جعل زيد يصعد قبلها ويمدُّ يدهُ إليها، بقيتْ تنظرُ بترددٍ، ثم أمسكتْ يدهُ لتصعد، وعندما صعدتْ تركَ يدها ومرر أصابعهُ على أصابعها لكنهُ ما لبثَ حتى سحب يدهُ بسرعةٍ خجلًا، ثم نزل من السلالم. ودعتهُ بإشارةٍ من يدها وابتسامةٍ خجولة ومشيت لمقعدها، بينما رجع هو ليقف أمام شباك التذاكر، ولم يرد أن ينظر الى مكان جلوس شروق، التي كانتْ جالسةً وتنظرُ إليهِ من نافذة القطار، راجيةً أن ينظر لها نظرة أخيرة لكنه لم يفعل، وعندما تحرك القطار رجع ليدخل إلى غرفتهِ ولم ينظر حتى اختفى تمامًا.

اختلطت مشاعر زيد بين الحزن لأن شروق ذهبت وبين السعادة التي غرستها شروق فيهِ، وبقي ينتظر صاحبهُ، محمد الرجل الكبير في السن، ليُكمل عملهُ ويأتي ليجلس مع زيد ويتبادلان الكلام، والمسامرات، والأغاني والشاي والدخان، لكن محمد تأخر هذهِ المرّة، وجعل زيد ينتظرهُ على أحر من الجمر ليخبره عمّا حصل معهُ.

فتح زيد مسجلهُ ليسمع بعض الأغاني، وبقي يفكر في شروق، حتى أنه لم يستطع معرفة الأغنية وكلماتها، بل كان يسمع اللحن فقط، وبينما هو كذلك فُتِح الباب ودخل محمد، وجلس على المقعد لكنه لم يُسلم، وزيد من شدة شرودهِ لم ينتبه لهُ، أشعل محمد سيجارته، وانتبه زيد له عندما سمع صوت القدّاحة.

- أهلًا يا عمي.
- ما بالكَ شاردٌ هكذا، هل اشتقت لبغداد كعادتك؟
- لقد أتتْ لي بغداد بنفسها.
- وكيفَ هذا؟
- لقد أشرقت عليّ بنتٌ من الحلّة، بغدادية الملامح.
- وماذا بعد؟

- أحببتُها يا عمي!
- من نظرة واحدة؟ لا أعتقد؛ فالحب من نظرة واحدة هو كذبة، الحب من النظرة الأولى يُغرَس، لكنهُ لا يُثمر.
- وماذا تفسر الحال التي بها أنا؟
- إنك معجبٌ فقط، سيزيل تأثير هذا الإعجاب قريبًا.

سحب زيد سيجارة ودخنها، ثم قال:

- اسمها شروق، إنها مشرقة.. قلّ لي يا عمي، هل أحببت من قبل؟
- نعم أحببت، اسكب لي كوب شاي الآن فقد تجمدتُ من البرد.
- وهل تزوجتَها؟
- لو تزوجتُها، لما وجدتني جالسًا أمامك! قصة طويلة يا بُني، طويلة ومحزنة، ولا أريد الخوض في تفاصيلها، فدائمًا ما ترهقني، وتعذبني.

سكت الاثنان وبقي كلٌّ منهما يفكر في أمورهِ، فزيد يفكر في شروق، ومحمد يفكر في حبيبتهِ التي ذهبتْ منهُ، سحبَ نفسًا كلهُ أشجان ثم قال:

- لقد قتلها أخوها.
- ماذا؟! وكيف! لماذا ومتى؟ أخبرني..
- كانتْ شابة حسنة الوجه، طيبة القلب، وقعتُ في حبها ولم أستطع الظفر بها، أحببتها منذ كان عمري سبعة عشر عامًا، عشتُ أجمل أيامِ حياتي معها، في كل مرةٍ كنتُ أذهب إليها مثقلًا بحزني، تجعلني أبتسم، وتبثُ في قلبي الطمأنينة بنظرةٍ واحدة منها..

كُنّا نختلفُ في بعض الأمور، لكن هذا الأمر زادَ حبّنا، كانتْ أجمل ليالي حياتي معها، على ذلكَ الشبّاك، عندما أصبحتُ في الثانية والعشرين، قررتُ الزواج بها، ذاتَ يومٍ استيقظتُ صباحًا لأخبر أمي أن تخطبها لي، لكنني سمعتُ صوت بكاء فخرجتُ من البيت وتوجهتُ صوب مصدر البكاء، فتبين أنه بيتهم، أخرجوها أمامي ملفوفة بشرشف، وبعض من خصلات شعرها الشقراء كانت تقطرُ دمًا وهي منسدلة من النعش.

لم يكمل محمد وغرقتْ عيناه بالدموع وأصبحتا حمراوين، تنهد وأشعل سيجارة، سحب منها بعض الدخان، ثم أكمل ولكن بغصّةٍ في نبرتهِ:

- بعد السؤال عرفتُ بأن أخاها قتلها بحجة غسل العار، ولأنه رآها مع رجل يقف على شباكها.

لقد كنتُ أنا هذا الرجل يا زيد، أنا من كنتُ سبب قتلها، تمنيتُ لو أن أخاها قتلني أنا بمكانها، لو أنه قتلنا كلينا، الحياة ليستْ عادلة يا زيد، ليستْ عادلة أبدًا.

ولم يستطع محمد مسك دموعهِ فبدأ يبكي كثيرًا، أما زيد حتى هو سقطتْ دموعهُ ولم يواسِ رفيقهُ..

وبعد ربع ساعة تقريبًا سكت الاثنان، وقام محمد، فقال:

- تصبح على خير، أنا ذاهب لأنام في غرفتي.
- ماذا كان اسمها يا عمي؟

لم يُجبهُ محمد وخرجَ من الكابينة وترك زيد في مشاعر متخبطة ومختلفة.

(٢)

في الصباح، أتى حسن، الشخص الذي كان عليهِ أخذ مكان زيد، ليذهب الأخير في استراحة يومين ومن ثم يعود، هكذا كانتْ مناوبة العمل هناكَ.

أخذ زيد أغراضه وذهبَ ليصبّح على محمد وليطمئن عليهِ، وما أن وصلَ، طرقَ الباب مرتين ولم يسمع جوابًا، صاح عليهِ مرة واحدة ولم يسمع جوابًا أيضاً، استدار ومشي ليخرج من المحطة وهو خائف على محمد، ولم يرد أن يدخل خشيةَ أن يجدهُ ميتًا، وهو لا يريد أن يضع نفسهُ في هذا الموقف، فعلى الرغم من أنه يحب محمدًا، إلا أنه قد تراجع عن دخول غرفتهِ، وبينما هو يمشي سريعًا وخائفًا أن يسمع خبرَ موتِ رفيقه العزيز، أخرجهُ صوتٌ من وضعهِ هذا:

- زيد! أين صباح الخير خاصّتك؟

تفاجأ زيد وابتسم ومن ثم ذهبَ ليقبّل رأس محمد، وقال:

- جئتُ إلى غرفتكَ ولم أركَ؟ أين كنتَ يا عمي؟
- لقد خرجتُ لأتمشى قليلًا، فأين سأذهبُ مثلًا؟ لن أموتَ اليوم لا تخف.
- عُمركَ طويلٌ يا عمي.
- أيّ عمرٍ هذا يا بُني، حسنًا اذهب لبيتكَ وخذ قسطًا من الراحة واستحم.
- هل ستمرّ عليّ الليلة؟
- لا أعرف، لربما أنني سأذهب لرؤية أخي فاضل وأولادهِ لقد اشتقتُ إليهم.

- خُذ راحتكَ يا عمي، أنا بانتظارك دومًا.

وسلّم عليهِ وودعهُ ومن ثمّ خرجَ من المحطة ليذهبَ لبيتهِ بالإيجار، الذي أجّرهُ منذ بدأ عملهِ في محطة قطار البصرة.

قضى يومين في بيتهِ وهو ينتظر محمدًا أن يأتي إليه، لكنهُ لم يفعل، لأنه بقي عند أخيه فاضل.

بعد انتهاء اليومين ذهب زيد للمحطة، سلّم على حسن وجلس في الكابينة، تكلما قليلًا وشربا الشاي، ثم قام حسن ليذهب، خرجَ ولكنهُ توقفَ، ثم قال:

- بالأمس إحدى المسافرات سألتْ عنكَ، وقلتُ لها أن تخبرني ماذا تريد لكنها رفضتْ وقالت إنها أرادتْ رؤيتِكَ فقط.
- ماذا كان اسمها؟
- قالت بأن اسمها شروق على ما أعتقد.
- آها، وماذا قالت أيضاً.
- هذا كل شيء.
- حسنًا

ثم خرجَ حسن وترك زيدًا يفكر طويلًا بشروق هذهِ التي سرقتْ قلبهُ، يفكر بعينيها، برموشها، ابتسامتها، وحتى نبرة صوتها، ولا يعلم أين ستصل بهِ الحال.

أكمل زيد يومهُ كما هو مُعتاد بدون محمد، فاليوم هو آخر يوم لاستراحتهِ وسيأتي غدًا.

في اليوم التالي، لم يأتِ محمد، وقد انتظره زيد، وبقي مشغول البال عليهِ، وعندما تحرك القطار وذهبَ، توجّه زيد لمدير المحطة، فسأله عن محمد، لكن مدير المحطة لا يعرف شيئًا عنهُ، فقام زيد بالاتصال عن طريق التلفون الأرضي بمنزل فاضل، ليسأله عن محمد، لكن فاضل أخبرهُ بأن محمدًا قد ساءت حاله ونقلوه للمستشفى، لكنهُ الآن في وضعٍ مستقر.

ذهبَ زيد ليخبر العاملين في المحطة عن محمد، وأنه سيذهب لزيارتهِ غدًا، وأجمعوا على الذهاب إليه.

في اليوم التالي ذهبوا لمحمد ودخلوا عليهِ في غرفتهِ، وفورًا عند دخولهم ابتسم بفرحٍ وعيناه تنظرُ إليهم، قضوا معه قرابة الربع ساعة فقط، فهم لا يريدون الإثقال عليهِ؛ وهو مريضٌ يحتاج للراحة، وعند خروجهم صاحَ محمد لزيدٍ:

- زيودي.
- نعم عمي.
- أنتَ ابقَ، لدي كلامٌ معكَ.

أغلق زيد باب الغرفة وجلسَ على الكرسي هو ومحمد فقط، لأن فاضلًا قد خرج لتوديع البقية.

- خيرٌ يا عمي؟
- ألا تريد الكلام مع رفيقكَ؟ أم أنكَ تخلّيتَ عنّي بسرعة.
- لا لا يا عمي، على العكس، فليلة أمس غريبةٌ ومملة بدونكَ، لكنني لا أريد تعبكَ وحالتكَ تحتاج الراحة.
- راحتي بالكلام معكَ، قال الأطباء بأنني قد كنتُ سأتعرّض لجلطة قلبية، لكن الله قد نجاني منها، ولم أحب إخباركم عنها، لكنكَ مختلفٌ.
- حمدًا لله على سلامتكَ، وكيف حصل هذا؟ أقصد كيف تدهورت صحتكَ فجأةً؟
- لا أعرف، أحسستُ بألمٍ في قلبي، سقطتُ ومن ثم وجدتُ نفسي في المستشفى، المشكلة أن الطبيب قال لي بأن السجائر مضرّة وعليّ تركها.
- أنتَ أخرج من المستشفى وسأهرّب لكَ السجائر، لكن لن تشرب أكثر من اثنتين في اليوم.
- أيها المشاغب، كم أحبكَ، على كلٍّ، أردتُ إخبارك شيئًا، ولا تعترض عليَّ.
- تكلم يا عمي.
- أنا أعرف أن إجازتك الأسبوعية تبدأ من اليوم، وأعلم أنك مشتاقٌ لبغداد كثيرًا، عليكَ أن تذهب، لا تبق هنا من أجلي.
- لكن يا عمي، أهلي في بغداد لا يرحبون بي، حتى أنهم قد سعدوا بقرار نقلي للبصرة، وأنت تعلمُ أنني لا أذهب من أجلهم، بل أذهب من أجل بغداد، من أجل دجلة، المتنبي، الكرّادة، والكرخ..
- أنتَ مخيرٌ، إما أن تعيش وحيدًا أو تعيشَ مع أشخاصٍ كُلهم تراكمات عاطفية ونفسية، فأرى أن تتخذ الخيار الثاني أفضل.
- وصحتكَ يا عمي؟
- ليس بي شيء، سأخرجُ غدًا، أستطيع الآن أن أتسابق معكَ وأهزمكَ.
- جعلكَ اللهُ دومًا قويًا.
- هيا، اذهب وحضّر أغراضكَ لتذهبَ لبغداد، حبيبتُكَ الأولى.

ودّعهُ زيد وخرجَ، ونظرات محمد خلفهُ، وبقي يمشي في أروقة المستشفى حتى وصلَ لبابها، وهو يفكر بصحة رفيقهِ وبشروق، كيفَ سيحافظ على صحة الأول وكيفَ سيدخل لقلب الثانية..

إنهُ لأمرٌ متعب التفكير في الحب، وكأنهُ يقول لنفسهِ ما الذي أدخلكَ لطريق الحب هذا، لقد كانت علاقتكَ بكتبكَ والشاي والسجائر فقط، والآن أنتَ تنسى كل هذا بمجرد التفكير في شروق.

(٣)

ذهب زيد لبغداد في إجازته الأسبوعية وقضاها بالتنقل بين مدنها وأروقتها، ذهب للرشيد، المتنبي، الأعظمية، الكاظمية، ساحة التحرير، وكعادتهِ ختم آخر ليلة على ضفاف دجلة، أشبع قلبهُ من حبيبتهِ بغداد.

عند عودتهِ إلى البصرة، في القطار، نزل في المحطة ليأخذ مكان حسن.

- السلام عليكم، شلونك حسن؟
- عليكم السلام، أهلًا زيد، الحمد لله وأنتَ؟
- بخير، كيفَ حال محمد؟
- جيد، لقد تعافى وعاد للعمل هنا، إنه في غرفتهِ، لم يمرّ عليّ ليلة البارحة، سلّم وذهب، أعتقد أنه تعبٌ بعض الشيء.
- نعم، فقد مرَّ بظرفٍ صحي حرج.
- زيد، أعتذر عن التدخل، لكن ما قصة شروق هذهِ؟

تحركتْ مشاعر زيد وابتسم، ثم قال:

- لماذا؟
- لقد أتت ليلة البارحة وقطعتْ تذكرةً لبغداد، وبقيتْ تفتشُ بعينيها عنكَ، وتركتْ لكَ هذا الظرف، لم أفتحهُ، ولا أعلم ما في داخلهِ.
- إنها مجردُ صديقة، أين هو الظرف؟
- هنالكَ على الطاولة.
- حسنًا، شكرًا لكَ.
- العفو، سآخذ رخصة الآن لأذهب لبيتي؛ لأستريح.

طار زيد من الفرح لكنهُ لم يبين ذلكَ، وعندما دخلَ لغرفتهِ أغلق الباب وراءهُ وجلسَ على الكرسي، وكان متشوقًا لفتح الظرف، تحسسهُ فعرف أنه كتاب، فتحهُ بمهلٍ وشوق، وقد كان كتابًا كما توقع، بعنوان (الليالي البيضاء) للكاتب دوستويفسكي، وفي الصفحة الأولى إهداء بخطٍ جميل (لليالي زيدٍ اللطيف، أهديكَ هذا الكتابَ.. شروق).

تحسسَ زيد الخط بأصابعهِ وهو مبتسم، وأغلقَ الكتاب تاركًا إياه لليلتهِ حتى يتنسى لهُ قراءته بترٍو وحب، خرجَ من الغرفةِ ليذهب لرفيقه محمد، وقد وجدهُ واقفًا أمام باب الغرفة، حضنهُ وقبلهُ من وجنتيهِ، وقال محمد:

- ألم أقلُ لكَ بأنني سأخرجُ في اليوم التالي؟

- الحمد لله.. كيفَ حالكَ؟ لقد اشتقتُ إليكَ.
- وآني كم اشتاقيتلك ولك، كيفَ حال بغداد؟
- جميلةٌ وحزينة، كما عهدناها.

وبقي الاثنان يتمشيان سويةً ويتكلمان في أمورٍ مختلفة، بدأ محمد عملهُ في تنظيفِ المكان وزيد لا يفارقهُ ويساعدهُ في بعض الأمور، حلّ وقت الظهيرةِ وتناولا الطعام معًا، وعند المساء، وقبل ذهاب القطار لبغداد، وعندَ انتهاء عمل محمد، اجتمعا في الغرفة كما هو الحال وبقيا يتبادلان الحديث، فتذكر زيدٌ شروق، فقال والسعادة تملأ عينيه:

- لقد أتت ليلة أمس.
- من؟ شروق؟
- نعم، ألم ترها؟
- لا لا، فقد كنتُ أعمل.
- تركتْ لي هذا الكتاب، هاك انظر في الصفحة الأولى.

قرأ محمد الصفحة الأولى، حَزِنَ عند رؤية اسم شروق لكنهُ سرعان ما ابتسم وقال:

- يجب أن تكتبَ اسمي بجانب اسمك أيضاً فنحن نتقاسم الليالي

وضحكَ الاثنان فأكمل محمد:

- يبدو أن الحبَ متبادلٌ بينكما.
- حقًا؟ وكيفَ عرفتَ ذلكَ؟
- من الاهتمام، الاهتمام يا زيد، أساس الحب، في بدايتهِ وذروتهِ، فهي مهتمةٌ بكَ كما يبدو.

ابتسم زيدٌ، وبينما هما كذلكَ سمِعا صوت صياحٍ وشجار، خرجَ زيد ومحمد سريعًا، لرؤية ما يحدث، كانَ هنالكَ شجارٌ حاصلًا بين شابٍ ورجل كبير في السن، ولم يُعرف سببه، هرعَ زيد للفصلِ بينهما، ولكنهُ قبل أن يصل قام الشاب بتوجيهِ لكمة لوجه الرجل الكبير، فسقطَ أرضًا، وقفَ زيد بينهما وقد وضع الرجل الكبير خلفَ ظهرهِ ودفع الشاب وسقط، قام الشابُ راكضًا، فمسكهُ زيد من يديهِ، ليحمي الرجل الكبير، الذي قام بسحبِ سكينٍ ووجهها إليهما.

- زيد، دير بالك!

صاح محمد عليهِ، لكن الأوان قد فات، فقد طُعن الشاب في خاصرتهِ وهو بين يدي زيد.

تم مناداة الحرس بعدما قام أصدقاء الشاب المطعون بمسكِ الرجل الكبير وتوجيهِ بعض اللكمات إليهِ، لكن الحرس منعوهم من ذلكَ.

بعد قدوم الشرطةِ والإسعاف، أخِذَ الرجل الكبير مُكبلًا.

بَقي زيد ومحمد في الغرفة والصدمة على وجهيهما، وزيد خائفٌ والدم في يديهِ، حتى نبهَهُ محمد وقام ليغسلهما، وبقيا حتى الفجر ثم ذهب محمد لغرفتهِ، تاركًا زيد مستيقظًا حتى الصباح، أشعل النار تحت إبريق الشاي ويده ترتجف، سمعَ وقع أقدام، وفُتِحَ الباب عليهِ دون أن يطرقوه، لقد كانوا رجال أمنٍ ومدير المحطة.

- أنت زيد كريم؟
- نعم، لماذا؟
- بدون أيّ كلام عليكَ الذهاب معنا.
- ولكن..

وقبل أن يُكمل زيد سحبوه من ملابسهِ وأخذوه قسرًا.

(٤)

- أنتَ زيد، مو؟
- نعم، أنا زيد، لكن أنتم من؟
- أنتَ في المكافحة الآن، وعليكَ أن تعترف.
- بماذا؟
- تسوي نفسكَ ما تدري؟
- لا أعلم، عن ماذا تتكلمون؟!
- حادثة الطعن التي حصلتْ يوم أمس، لماذا ساعدتَ في طعن الشاب.
- أنا لم أفعل ...!

وبعد أن وجهَ الضابط صفعةً قوية لزيد، قال:

- كلما تعترفُ سريعًا كلما قلّ ضربك.
- لكنني لا أعرفُ أيًا منهما!

- ثامر قال أنهُ يعرُفكَ، وأنكم متفقين.
- ومن هو ثامر!

صفعهُ الضابط مرةً أخرى ولكن هذهِ المرة أقوى، مسكَ زيد من ياقتهِ وصاحَ به:

- ثامر هو الذي طعن جمال، أنتَ تعرفهُ جيدًا، وأحذركَ أن تُنكِر
- أقسمُ لكَ بالله أنني لا أعرف أحدًا منهم.

لم يتركوا المجال لزيد للتكلمِ وانهالوا عليهِ ضربًا وتعذيبًا بالعصيّ والكابلات حتى تمزقتْ ملابسهُ من على جسدهِ، وبعد أن أغمِيَ عليهِ، سكبوا عليهِ ماءً باردًا واستيقظَ هَلِعًا، وبقوا على هذهِ الحال حتى اعترف زيد بما يريدوه منه، تبسمَ الضابط وقال:

- من البداية واعترف، لماذا تقاوم هكذا؟

وتركوا زيدًا غارقًا في دماءهِ وآلامهِ، تذكرَ أحد معارفهِ الذي فقدَ عينهُ بالتحقيق وهو لم يقترف أي ذنب، والآخر الذي كسروا قدمهُ كسرًا مضاعفًا ولم يستطع المشي عليها، وأصابها سرطان وقرروا بترها، ومات بعدها بشهرين، فهكذا هو التحقيق في بلدٍ ديمقراطي كالعراق يجوز لهم قتلُ أيًا كان لإجباره على الاعتراف بما لم يقترفهُ من جريمة.

قضى زيد شهرًا في سجن المكافحة، وقد أُعيد تسجيل أقوالهِ، وقال إنه قد مسكَ الضحية ولم يعلمْ بأن الجاني قد سحبَ سكينًا ليطعنهُ. وفي هذا الشهر لم يُسمح لأي أحدٍ بزيارة زيد، وبعد أن أفاقَ جمال اتهم زيدًا بأنهُ قد مسكهُ حتى يقوم ثامر بطعنهِ، وأنهُ قد ضربهُ قبل أن يُطعن.

أخبروا زيد بأن محاكمتهِ ستتم بعد أسبوع، وفي هذا الأسبوع يستطيع أن يُكلّف محاميًا، وأن يستقبل الزيارات، وبعد مرور يومين قامَ محمد بزيارة زيد، وبعد أن سلّم عليهِ، قال:

- ماذا فعلوا بكَ يا زيودي! كسّر الله عظامهم.
- حمدًا للهِ على كلّ حال.
- لقد قام أصدقاء هذا الحقير جمال بالافتراء عليكَ، وقد شهدوا بأنكَ ساعدتَ ثامر بالطعن، ولم يشهد أحدٌ لصالحكَ غيري، فالكل كان خائفًا؛ لأن جمال من عشيرةٍ كبيرة ومعروفة في البصرة!
- أنا أسلمُ أمري لله، فإن ظلموني فالله سيحاسبهم، وأنت يا عمي عليكَ أن تسحبَ أقوالكَ فأنا أخافُ عليكَ من جُرمِ هؤلاء.
- ماذا تقول يا زيد! لا أريدُ سماع هذا الأمر منكَ ثانيةً، إنني نَحِلٌ الآن لعدم مقدرتي على توكيل محامٍ لكَ.
- لا أريد محاميًا يا عمي، أنا سأقول الحق ولن أقول غيرهُ.

- لا أعرف ماذا أقول..
- كيفَ حال المحطة، ومن وضعوا مكاني؟
- بأيّ حال أنتَ وتسأل عن المحطة!

سكت محمد قليلًا، ثم قال:

- لقد وضعوا مكانكَ ولدًا شابًا لا أعرفُ اسمهُ، لا أتردد عليهِ، حتى حسن أقوم بالسلام عليهِ فقط.
- سأخرجُ قريبًا ونرجعُ لأيامنا معًا، لا تتكدر يا عمي.

(٥)

«نظرًا للتهمة الموجهة إلى المجرم (ثامر محسن جاسم) وأقوال الشهود الأربعة ضدّه، تم الحكم عليهِ بالمؤبد بتهمة الشروع في القتل وتم تخفيف العقوبة للسجن عشر سنوات».

«نظرًا للتهمة الموجهة إلى المجرم (زيد كريم محمد) وأقوال الشهود الأربعة ضدّه، تم الحكم عليهِ بالمؤبد بتهمة الشروع في القتل وتم تخفيف العقوبة للسجن عشر سنوات».

كان موقف زيدٍ ثابتًا في هذهِ اللحظة، ولم يفعل شيئًا سوى الالتفات إلى محمد والابتسام، وكأن ابتسامتهُ تقول بأنه ليس خائفًا من شيء، لطالما هو نفسهُ يعرف ببراءتهِ، عكس ثامر الذي قد بدأ في الصراخ ومحاولة الخروج من القفص عند سماعهِ الحكم!

نُقِلَ زيد لسجن الحوت في ذي قار، وبقي هنالك قرابة السبعة أشهر حتى قامَ محمد بزيارتهِ الأولى لهُ، وقد أخذتْ الدموع مأخذها منهُ عندما رأى زيدًا بعد فراقٍ طويل، الذي كان مبتسمًا رغم عَدَمِ ظهور علامات الارتياح على وجههِ، بسببِ بُعدهِ عن بغداد وعن محمد، كان هذا هو همّتهُ الأكبر رغم مرارة وهمّ السجن وهو بريء.

- لماذا صحتكَ متدهورة يا عمي؟
- وكيف تريدها وأنتَ بعيدٌ عنّي هكذا؟! فضلًا عن كوني كبير في السن ولم يتبقَ لي من العمر شيء.
- عُمركَ طويلٌ، بعد عشر سنوات سأخرجُ وستكون أولَ من يستقبلُني، لقد قضيتُ سبعة أشهر ولم يبقَ لي سوى تسع سنوات.
- وابتسم ثم أكمل:
- إنها ليستْ سوى رمشة عين وتراني حرًا طليقًا، الشجعان لا يخافون السجن وهم يعلمون ببراءتهم.
- أخشى ألا أكون موجودًا عندَ خروجكَ، فوالله إني لا أريد هذه الدنيا إلا من أجلكَ ومن أجل أخي وأولادهِ.

- لا تتكلم هكذا يا عمي، قلّ لي، هل وضعوا مكاني أحدًا؟
- لقد وضعوا ثلاثةً أشخاصٍ حتى الآن بأجرٍ أسبوعي، ولم يثبّتوا أحدًا، وقد قالَ لي مدير المحطة بأن فتاةً ما ستحلّ مكانكَ بشكلٍ دائم.
- فتاة؟ هذا ما ينقص!

وضحِكَ الاثنان، رغم أن ضحكتهما كلها حزن، إلا أنها كانتْ أول ضحكة من أعماق القلب منذ سنة تقريبًا.

- لقد جلبتُ لكَ كُتبكَ، وأهمها كتاب شروق، أنا أعرف بأنكَ تريدُ هذا الكتاب.
- شروق هذهِ لم تكنْ سوى ريشة دغدغت مشاعري، ولم أتوفق بالوصول إليها.
- لا يا زيد، لقد أحببتَها، أنا أعرفُكَ جيدًا؛ فحبها موجود بعينيكَ
- أحببتُها لكن ما الفائدة؟
- ستصل لحبكَ، أنا أعرف ذلك.

وعند انتهاء المقابلة تعانقا الاثنين وبكيا، العلاقة التي كانت تجمعهما أكثر من كونها صداقة، لقد كانتْ حُبا كبيرًا.

استمرت اللقاءات بينهما مرّة كل شهرين، محمد يشتري من راتبهِ الشخصي وبمساعدة أخيه المالية ملابسَ لزيد في كل مرة يزوره فيها، بالإضافة للكتُب، رغم عدم قبول زيد بهذا الأمر إلا أن محمدًا كان يرد عليهِ في كلّ مرة:

شسوي براتبي؟ أهم شي أنتَ زيودي.

في هذهِ المدّة تم تثبيت شخصٍ في مكان زيد، اسمه شامل، شاملٌ هذا لا يروق لمحمد، وكان يلقبه عند التكلم مع زيد (شرشبيل) لكونه يشبه هذه الشخصية الشريرة، مما يستدعي ضحك زيد كثيرًا، خاصة إنه انفجر ضاحكًا عند سماع هذا اللقب لأول مرة على طريقة محمد، عندما قالَ اسمهُ

- هذا نسيت شسمه.. شرشبيل

قضى زيد سنتين في السجن، كان انعزاليًا، ولم يكوّنْ صداقات داخل السجن، سوى علاقات سطحية.

أتى وقت الزيارة، وأتى معهُ محمد، لكنهُ يبدو متعبًا أكثر من كلّ مرة، ويتكلم ببطء:

- عمي، لماذا لا تعتني بصحتكَ؟
- العمر يمضي والصحة تتهالكُ، ولا طاقة لي على الاعتناء بها، أحس أن موتي قريبٌ، لذلك أتيتُ لأراكَ آخر المرة الأخيرة.

كان صوت محمد جدّيًّا هذه المرة، وعلامات الموت بادية على وجهه، انسحق قلبُ زيد من الألم وسقطتْ دموعهُ دون مقاومة وهو يمعن النظر في ملامح محمد، حتى هو أحس بأنها المرة الأخيرة التي سيلتقيان بها.

- لا تبكِ يا زيد، هذهِ هي الحياة، تعال وقُل لي هل رأيتَ ميتًا يواسي صديقهُ على موتهِ؟ هذا الأمر متوفر لدى محمد فقط!

ضَحِكَ زيد والدموع متجمعة في عينيهِ، مسحها وحاول تهدئة نفسهِ، فأكمل محمد:

- لقد استقال شرشبيل!

وانفجر الاثنان ضاحكين بصوتٍ عالٍ.

- حقًّا استقال؟
- إي والله.
- وأنتَ فرحتَ لذلك أكيد.
- لا أخفيك، نعم تقريبًا، عيّنوا فتاةً بمكانهِ.
- فتاة؟
- نعم فتاة شابة.
- إياكَ أن تخونني معها يا عمي.
- الصراحة فعلتُ ذلكَ، ليلة أمس، مررتُ للسلام عليها والترحيب بها، دعتني للجلوس وشرب الشاي، إنها فتاة أنيقة ومهذبة، قد غيّرت ديكور الغرفة، وعلّقت بعض الرسومات؛ رسمها.
- رسامة؟
- نعم، قالتْ لي بأنها خرّيجة معهد الفنون الجميلة، فاستغربتُ من قدومها للعمل في محطة القطار وهي بهذهِ الشهادة، أخبرتني أن حلمها كان العمل هنا.
- وماذا بعد؟
- هذا كل شيء، فقد كُنتُ متعبًا وأريد الراحة حتى أجيء إليكَ اليوم.

لم يُعلّق زيد شيئًا على هذه الفتاة، وبقي يتكلم في مواضيع عديدة حتى انتهى وقت الزيارة، وكعادتهِما تعانقا وبكيا، لكن هذهِ المرة أكثر، وبقي محمد يتلفت عند خروجهِ.

مرّ شهران وأكثر قليلًا، ولم يقم محمد بزيارة زيد، وزيد كان قلقًا جدًا على رفيقهِ، وبقي ينتظر مجيئهُ كل يوم، مرّت الأيام ومحمد لم يأتِ، وبعد مرور شهرين، تم إخبار زيد بقدوم شخص لزيارتهِ، خرجَ متلهفًا يبحثُ عن وجهِ محمد بين الوجوه، لكنّه لم يره، بل وجدَ فاضلًا أمامهُ، الذي أقبلَ على زيد وعانقهُ بابتسامة، جلسا يتكلمان وبعد السؤال على صحة فاضل، بادر زيد بالكلام:

- لماذا لم يأتِ محمد؟
- محمد يا محمد.. سأقول لكَ لماذا لم يأتِ، لكن قبل هذا أنا أحملُ إليكَ خبرًا سارًا.
- حسنًا أخبرني، ولا تنسَ محمدًا.
- لن أنساه يا زيد لن أنساه، الخبر هو أن ثامر قد أعاد تسجيل أقوالهِ وقال بأنكَ لا تعرفهُ ولم تكن تعلمُ بنيّتهِ للقتل، ولم ترهُ يسحبُ سكينًا.
- حقًّا؟ ولماذا غيّرَ رأيهُ هكذا!؟
- قال لي أبوه بأن أحد الأشخاص قد أعطاهم مبلغًا زهيدًا مقابل تكلم هذا الكلام.
- ومن هذا الشخص؟ هل هو من أهلي أو أقاربي؟
- لم يقبل أبو ثامر التكلم، وقال: إن ابنكم سيرجع، ماذا تريدون من الذي دفعَ لنا؟
- آها..
- ستخرج بعد عشرة أيام كحد أقصى، لأنني استشرت أحد المحامين، وقال لي بأنك ستكون بريئًا بصفة رسمية.
- الحمد لله، ومحمد؟ كيف كانَ رد فعلهُ على هذا الخبر؟
- لقد سَعِدَ كثيرًا، وضحكَ ضحكته المميزة، الي يضحكها من كل قلبه عندما يكون معكَ فقط.
- واليوم لماذا لم يأتِ؟
- بعد أسبوع من زيارتهِ لكَ، تَعب محمد، وبعدها أدخلناه مستشفى لأن حالتهِ الصحية تدهورت.
- وماذا بعد..
- بعد يومين من دخولهِ المستشفى..

ولم يُكمل فاضل وبقي ينظر لزيد وعينيهِ حمراوين جدًّا

- وماذا بعد يا فاضل!؟
- محمد أعطاكَ عُمرهُ وانتقل لجوار ربهِ..

(٦)

إنها أول مرة يرى فيها الشمس وهو حر منذ سنتين ونصف تقريبًا، يرفعُ رأسه للسماء ويستمتع بإيذاء الشمس لعينيه، ينظر للناس كلهم في وجوههم ويركز فيها، إلا أنه لم يكن تواقًا للخروج، فلا تفرقُ عنده، هل هو داخل السجن أو لا، فبالحالتين لن يرى محمدًا، ولن يتكلم معه، بالأحرى إن السجن هو أفضل من الحرية في هذه الحال، فالسجن مكانٌ واحد تُسجن فيه عن كل الأرض، بينما الحرية مكان تُسجن فيه عن شيءٍ من المستحيل الوصول إليه، هذا الشيء هو محمد، كُل تفكير زيد كان بهِ، في كل مكان، في كل كلمة، في كل شيء، حتى أنه بعد خروجهِ لم يذهب للمحطة، ولم يخرج من بيتهِ، فقط يخرج لشراء الأمور المهمة ويرجع، بقي على هذهِ الحالة ثلاثة أشهر، يأكل ويدخن، يقرأ وينام، وقد صرف كل أموالهِ التي كان قد جمعها، ولم يبق لديه سوى الشيء البسيط، زارهُ فاضل في بيتهِ، وقدّم له النصيحة بالخروج والعمل، فالجلوس في البيت لن يغير شيئًا ما هو فيه، وأخبرهُ بأن محمدًا قد تركَ له وصية قبل موتهِ، ستغير من وضعهِ هذا.

وضع زيد الوصية على الطاولة أمامهُ بعد خروج فاضل، ولم يقم بفتحها، بل بقي ينظر فيها ويدخن، أطفأ سيجارتهُ وقام للاستحمام وغيّر ملابسهُ، رتّب بيتهُ وغرفته ونظفها، وجلسَ على الكرسي، أخذ الوصية وفتحها:

«زيد، حبيبي وصديقي وابني وأخي، قد عِشتُ سبعًا وخمسين سنة، ورأيتُ في هذهِ الحياة الكثير، وعرفتُ الكثير من الناس، لكنني لم أجد صديقًا وفيًا مثلكَ، لقد كُنتَ مؤنسي وخليلي ورفيقي، وكلّ شيء؛ محطّ أسراري، راحتي بالكلام معكَ وضحكتي بالفرحة معكَ أنتَ، أنتَ فقط، ولا أحدَ غيرَك، قَربْتَ لقلبي كثيرًا، فلا أريد أذيتكَ وحزنكَ، الحياة قصيرة، ومؤلمة، وعليكَ أن تكون قويًا لتواجهها، أو تُسلمَ أمركَ لها، فتأخذُ بكَ يمينًا وترجعُ بكَ يسارًا.

الأطباء هنا يضعون لي الأجهزة الطبية، ويعطونني الأدوية والحقن التي يزعمون بأنها ستشفيني، وأنا أعلمُ بأن موتي بعد أيام، لذلكَ كتبتُ لكَ هذه الوصية التي سأخبركَ فيها بأشياء أردتُ أن تسمعها بصوتي، لكن هذه هي مشيئة الله، والأشياء التي سأخبركَ عنها ستغير عندكَ بعض الأمور، ولربما ستغير حياتكَ إن أردتَ ذلكَ، فإن شئتَ لا تقرأ.

قبلَ أن أزوركَ بيومين، ذهبتُ لأعمام ثامر، وطلبتُ منهم أن يتكلمَ ثامر بالحق، وأنه لم يكن يعرفكَ، ولم تكونا متفقين، أن يتكلم الحق، الحق فقط! وقد أخذتُ معي أحد الشيوخ الذي له علاقة جيدة بهم، فطلبوا مني مبلغًا من المال، لن أقولهُ لكَ، وكان لديّ هذا المبلغ، فقد جمعتُهُ من وقتٍ طويل، هل تريدني البخل بهِ عليك؟ بالتأكيد لا..

لم أعرف منذ متى على الإنسان أن يُدفعَ له المال من أجل قول الحق!

الأمر الآخر، آخر أسبوع قضيتُهُ في حياتي، وقبل أن أدخل المستشفى، تعرفتُ أكثر على الفتاة التي كانت تعمل مكانكَ، هل حَزِرتَ من هي؟ نعم، إنها شروق، حبيبتُكَ، لقد تكلمتُ عنكَ إليها، واعترفتُ بكل شيءٍ بالنيابة عنكَ، وأنكَ كنتَ تُحِبُها وهائم بها، إنها تحبُكَ أيضاً، لكنها لم تعترف بذلكَ، ستسألني كيفَ عرفتُ؟ سأقول لكَ، ماذا تسمي من يسألُ عنكَ دومًا؟ وعن ماذا

تحب، وماذا تكره، ومن يطلبُ منّي الحديث عنكَ دومًا، ومن يحملُ في يدهِ سوارًا بحرفكَ، ماذا تسميه؟ والكثير الكثير يا زيد، هذه البنت تحبكَ فلا تفرّط بها، وبعد أن تنتهي من قراءة هذهِ الوصية اذهب إليها.

أنتَ شاب جيد يا زيد، وجميل، فلا تترك فرصكَ بالحياة، وعِشها بكل تفاصيلها.

ذاتَ يوم، سألتني عن اسم حبيبتي التي قُتِلتْ ولم أجبكَ عنها.. اسمها شروق

أحبك زيودي».

(٧)

- أعتقد أن المحطّة قد اشتاقت لزيد.

رفع مدير المحطة رأسهُ وابتسم، قام فعانق زيدًا ورحّب بهِ، دعاه لشرب كوبٍ من الشاي وبعض الدخان وبعد حديثٍ ليس بالطويل قال:

- قد افتقدناك كثيرًا، ولم يبق أثرٌ لكَ غير محمد، وعندما تُوفّي أصبحت المحطة كئيبة ومظلمة.
- كما هي حياتي دون محمد.
- رحمه الله.
- أريد منكَ طلبين أتمنى أن توفرهما لي.
- تكلم يا زيد واطلب.
- الأول، أريد العودة للعمل، هنا في هذه المحطة.
- صراحةً ليس هنالك فرص شاغرة في هذهِ المحطة، لكنّي أعرف وظيفة شاغرة في دائرة السكك العامة في البصرة، فإن أردتَ سأعمل لتوظيفكَ فيها، واعذرني على عدم قدرتي بتوظيفك هنا.
- حسنًا، سأفكر بالأمر.
- والثاني؟
- الثاني، أريدكَ أن تعطيني معلومات شروق، الفتاة التي عملتْ بمكاني وأريد رؤيتها.
- لكَ هذا، لكن لن تستطيع رؤيتها حاليًا، فقد أخذت إجازة شهر، يبدو أنها تمتلك واسطة في الدارة العامة، فلم يسبق لأحدنا أن قام بهذا الأمر من قبل، ويبدو أنها ستنتقل من هذه المحطة، فقد أخبرتني بذلك، لكنّها لم تكن متأكدة.

حزِن زيد وظهرت علامات الوجوم على وجههِ، ثم قال:

- منذ متى بدأت إجازتها؟
- قبل يومين.

سكَتَ زيد قليلًا، وأغلق عينهِ، فأردف:

- ماذا أحتاج للتقديم على الوظيفة التي قلت لي بها؟

أخبره مدير المحطة عمّا يحتاجه، ووعده بأن الوظيفة ستكون بين يديه خلال أسبوع، وأعطاه معلومات شروق، فكانتْ كما قال لهُ محمد في وصيتهِ.

وحقًّا عمِلَ زيد في الدائرة العامّة كمحاسب ومشرف على رواتب الموظفين في محطة البصرة وموظفيّ الدائرة العامّة.

وبعد عشرة أيامٍ من عملهِ وصلهُ إشعار بأن رواتب موظفيّ المحطة فيها بعض التعديلات وسيأتونه ليصحح بياناتهم وإضافة التعديلات على رواتبهم يدويًا لمدّة أربعة أيام، بدأ زيد في عملهِ هذا، وبالرغم من كونهِ مُرهَقًا، لكنّه كان يجد فيه قضاء وقت حياتهِ الفارغ، وتعبه هذا أفضل من جلوسهِ على الكرسي أغلب وقت الدوام وشعورهِ بالملل.

في اليوم الثاني من تصحيح البيانات، كان زيد منهمكًا في عملهِ وقد تملّكتهُ العصبية، فصاحَ:

- الشخص التالي.

ولم يأتِ الشخص التالي، وقد تأخر في القدوم، رفع زيد رأسهُ وقال بعصبية:

- لماذا كل هذا التأخير!

وعندما سمِعَ صوت أقدام بدأ بكتابة التسلسل، وهو منكّس رأسه، وأكمل:

- الاسم رجاءً بسرعة.
- شروق.. شروق جمال.

القصة الرابعة: مشاعر مبعثرة

تأليف: مصطفى خليفة

الدولة: قطر

مشاعر مبعثرة

كعادتها..

الأم قبل مجيء الأب إلى المنزل بوقت كاف لتعيد ترتيب البيت، وتعد الطعام حتى يكونوا على أهبة الاستعداد؛ لقضاء وقت ممتع على مائدة الغداء في هذا البيت الصغير، المكون من ثلاث غرف ضيقة، تحيطه المباني من جهات ثلاث، ويفتح بابه الرئيس على شارع صغير باتساع مترين، يقابله على الجانب الآخر بيت عالٍ يحجب أشعة الشمس وإطلالة الهواء طوال الوقت.

لم يكن ترتيب تلك الغرف يأخذ وقتاً طويلاً ممن اعتادت عليها، فهناك في أقصى البيت غرفة الابنة حنان ذات الأعوام التسعة، التي دأبت على ترتيبها بنفسها وتعطيرها، وإخراج فرشها إلى السطح كلما بزغت الشمس، فقد كفت أمها مؤونتها، وبجانبها من ناحية الباب غرفة الأب والأم وبجانبهما حمام صغير، وتمر الأم بعد ترتيب غرفتهما بالصالة تصلح من شأنها لتصل إلى غرفة عمران المقابلة للصالة، ابنهما صاحب الأحد عشر ربيعًا.

على مشارف الشباب، يجمع بين براءة الأطفال وحماسة الشباب، يشيع البسمة والفرح في البيت، وهو عون وسند لكل من يحتاج إليه من أسرته الصغيرة، يعيش عمران في مملكته الممتلئة دوماً بالأغراض المتناثرة، وبعضها أحياناً فوق بعض، حتى لا تكاد تستطيع أخته حنان المرور بها، فهي ممتلئة الجسم عنه بعض الشيء؛ فخلف الباب كراتين كتبه، وأدواته القديمة، وأمام سريره في هذا المربع الصغير منضدة صغيرة يضع عليها زجاجة مزخرفة فيها رمل ملون، يحتفظ فيها دومًا بوردة حمراء، تعطي للغرفة شكلاً على أية حال، وامتلأت الأجزاء الظاهرة من جدرانها بالصور الكرتونية، والسيارات، وبعض صور الملاكم محمد علي كلاي، تتدلى من تحت الصور خشبة مائلة كانت تستند إليها الصور، إلا أنها مالت ولم يتداركها أحد ليصلحها، فهي عالقة بمسمار قديم يحول بينها وبين السقوط، وتحتها يقع مكان مذاكرته، حيث طاولة صغيرة وكرسي صغير، وعن يساره خزنة خشبية، وشماعة لملابسه التي تحتاج إلى ترتيب دائم.

عمران منشغل عن غرفته والعناية بها، حيث يجلس أوقاتًا طويلة ينظر من نافذة البيت المطلة على الشارع، ينظر إلى الجزء الظاهر من السماء، يتفكر فيه، ويحاول أن يمد رقبته قليلًا حتى يرى مساحة أوسع من الفضاء، يسبح فيها بخياله الخصب ليعاود مواصلة مذاكرته، وتفتح تلك النظرة الحالمة أمام نظره مستقبلاً أكثر رحابةً مما يعيشه في تلك الدار، فقد كان يتطلع إلى أن يكون ملاكمًا مشهورًا أو رسامًا مرموقًا.

على أنه جمع مع قوة يده حين تضرب، وحين يحمل شيئًا عن أمه الضعيفة، أو يساعد أخته حنان في حمل فراشها إلى السطح جمع شيئًا آخر، فقد كانت لمسات يده على الورق كنسمة هواء تمر بمسطح ماء ترسم عليه لوحة انسيابية، تثير الشجون وتبعث على الراحة.

أعدت الأم الطعام، وبدأت تنادي ابنتها لوضع الطعام في الصالة حيث السفرة الدائرية ذات المقاعد الأربعة، وضعت الطعام والماء، وما هي إلا لحظات حتى سمعت طرقات متقطعة على الباب.

عمران:

- من؟

الأب:

- احم احم، افتح يا بنى.

صوت غليظ، اختلطت غلظته بإجهاد وتوتر ما بعد يوم عمل شاق، فهو مراقب العمال الذي يتابع سير العمل في الموقع معظم الوقت، واختير لهذه الوظيفة من بين خمسين شخصاً تقدموا لها؛ لما يميزه من جسم فارع وشخصية حازمة، وصوت جهوري، حاجباه كثيفا الشعر مع تقوس واضح في أحدهما، وهناك عِرْق في جبهته يبرز كلما غضب أو انفعل، يكاد يفهمه العمال من نظرته الحادة؛ فتراهم يقومون بعملهم على أتم وجه.

تحرك عمران مسرعاً باتجاه الباب ليفتح لوالده، ولم يحسب المسافة بينه وبين سفرة الطعام جيداً، فاصطدم بكرسي السفرة، حاول أن يتماسك، فلمست يده قارورة الماء الزجاجية فسقط الماء على الأرض وانكسرت القارورة.

دخل الأب فوجد الزجاج على الأرض!

- من كسر القارورة تلك؟

عمران:

- أنا يا أبى، آسف على ما حدث.

الأب:

- أنا أعمل ليل نهار، للحصول على المال، وأنتم تكسرون بلا مبالاة أو أدنى مسؤولية؟

عمران:

- إنه أمر بسيط يا أبي، وكان دون قصد مني.

الأب:

- وكيف تجرؤ للرد عليّ؟ أنت عديم التربية.

حاول الأب أن يضرب ابنه، فجرى عمران مسرعاً إلى غرفته، وتبعه الأب منفعلاً:

- أتهرب مني؟ ألا تقدر صعوبة المعيشة في هذه الأيام، ولا تعرف قيمة المال؟

انزوى عمران في جانب الغرفة باكياً، ولم ير الأب أمامه سوى تلك الخشبة المتدلية على الحائط تحت الصور واللوحات، انتزعها بشدة، وانهال ضرباً على ابنه الصغير ليؤدبه.

عمران:

- كفاك يا أبي.. آخر مرة.. ارحمني يا أبي.

لم يهدأ الأب حتى ألقت ابنته حنان بنفسها بينه وبين أخيها وهي تصرخ: كفاك يا أبي لقد استوعب عمران الدرس، اضربني مكانه، اضربني أنا.. شاهدت الأم ما حدث بصمت، ولم يكن غداء هذا اليوم سعيداً بالمرة، فقد عجزت الأم عن التعبير عن مشاعرها تجاه ما يحدث، وفقدت الشهية للطعام الذي ظلت تعده طوال نهارها، بيد أنه لابد لهذا الطعام أن يؤكل، وأن يكون هناك من يجمع البيت عليه.

استجمعت الأم همتها وسارت إلى ابنها تحتضنه وتواسيه:

- لا تحزن يا عمران، إن أباك يحبك، لكنه إذا غضب فقد أعصابه، ولا يدري ما يقول أو يفعل، وكما تعلم يا بني فقد فقدت السمع بإحدى أذني منذ أن ضربني عليها، وكان خطئي عندما ذكرته أني تزوجته مرغمة، وأن أحد أصحابه قد تقدم ليتزوجني لكن أهلي رفضوا بسبب مشكلات قديمة كانت بين العائلتين، لكن والدك يا عمران طيب القلب، ويحبكما حبًّا شديدًا، ولا تهنأ نفسه أو يرتاح باله إذا أصيب أحدكما بشوكة في ظفره، أو سمع أنين أحدكما من المرض.

قم يا بني لنتغدى، ونحضر أباك معنا ليتناول الغداء، أليس هذا حقه علينا؟!

أرخى الليل سدوله، وقامت حنان مفزوعة بسبب رؤيا رأتها، وذهبت مسرعة تنادي أمها:

- أمي.. أمي..
- نعم يا ابنتي، خيراً!!
- لقد رأيت في منامي يا أمي رؤيا عجيبة.
- خيراً يا ابنتي! لا تقلقي، إن شاء الله تكون رؤيا صالحة بإذن الله.
- أريد الاطمئنان على أخي عمران، تعالي معي لأن قلبي قلق عليه.

الأم:

- لا مانع يا ابنتي، تعالي لنطمئن عليه، ها هو نائم لم يصب بأذى والحمد لله، طمأن الله قلبيكما يا حبيبتي، أخبريني يا حنان ماذا رأيتِ في المنام؟
- لقد رأيت أخي عمران يا أمي... (ثم سكتت حنان).

الأم في لهفة:

- ما به؟ ماذا رأيت؟

حنان بعد ازدردت ريقها:

- رأيت عمران وقد وقع القلم منه وقصفت سن القلم، وحينما حاول النزول لجلبه انزلق على الأرض وكسر ظهره، فظللت أبكي وأبكي وأنادي، أدركوا أخي.. أدركوا أخي.. ولا أحد يسمعني.. وفجأة!! وجدت أحداً جاء يمد يده ويجذب أخي ويوقفه.

فتساءلت الأم في خوف واضح على وجهها:

- وماذا بعد يا حنان؟ وهل وقف عمران معه؟

حنان:

- نعم يا أمي، وقف عمران معه لكن كان يبدو عليه التعب الشديد.

الأم بعد تنهيدة طويلة:

- خيراً يا ابنتي إن شاء الله، ربي يحفظكم.

ذهبت حنان إلى غرفتها، وقد اقتنعت بمواساة أمها، غير أن أمها لم تنم، وأخذت تفكر في أمر ذلك المنام الغريب الذي رأته ابنتها، النار تغلي في صدرها، وتكاد تلتهم أعصابها، وحرقة تسري في عروقها على ذلك الولد المسكين الذي تحمَّل الليلة مالا يتحمله مثله، لا لشيء سوى خطأ بسيط حدث قدرًا، لم تهدأ ثورة الأم حتى ذهبت إلى غرفة عمران، ووضعت يدها على جبهته، فإذا حرارته مرتفعة، وصوت أزيز في صدره من شدة الحمى، أسرعت الأم إلى قماشة بللتها بالماء البارد، وأخذت تخفف من شدة الحرارة بالكمادات حتى أذن الفجر.

استيقظ زوجها، فوجدها مشغولة بولدها، فسأل متعجبًا:

- خيراً؟! مالك؟ ماذا حدث؟

الأم:

- لا شيء، عمران ارتفعت درجة حرارته، وأعمل له كمادات من الماء البارد

فقال الأب في لهفة:

- لم لم تخبريني، فأقف معك أساعدك، أو أحضر طبيباً للكشف عليه؟!

فأجابت الأم:

- قلت في نفسي الصباح رباح، وسيكون بخير بإذن الله.

الأب:

- هذا عمل مفيد، لكن لابد أن نطلب الطبيب ليطلع على حالته ويطمئننا عليه، سأخرج لأحضره بنفسي، وما هي إلا دقائق معدودة وقد حضر الطبيب.

الطبيب:

- الحالة تحتاج إلى الانتقال للمستشفى فوراً.

قال الأب:

- حاضر، سنكون في المستشفى في دقائق..

وصل الوالدان بصحبة ابنهما عمران وأخته حنان والخوف يملأ قلوبهم، ولم يمض إلا وقت قليل حتى خرج الطبيب من غرفة الكشف في المستشفى متسائلاً:

- ماذا حدث بالضبط؟

الأب:

- لقد غضبت منه أمس، وضربته، لكنه لم يكن يعاني شيئًا، وأمضى الولد ليلته في سلام، ولكن في الصباح اكتشفنا ما ترى.

الطبيب:

- يبدو أنك قد ضربته بشيء يشتمل على حديد صدئ، أوفيه مسمار أو ما شابه، وللأسف تسبب في تسمم في يده اليمنى، أخشى ما أخشاه أن نضطر لقطع الكف المصابة.

فقال الأب في هلع وفزع:

- لا لا لا، أرجوك وأقبل يدك، تصرّف، اتخذ أي إجراء طبي يحول دون ذلك، لو اضطررت للذهاب إلى أي مكان في الداخل أو الخارج ليعالجه فدلني عليه، أرجوك اصنع أي شيء لتبقى يده سليمة، أرجوك.

الطبيب:

- عموماً، سأتصل على كبير الجراحين ليعاينه مرة أخرى ونعطي القرار إن شاء الله.

لم يكن أمام الأطباء من بديل سوى قطع يد عمران المسكين..

الهدوء يسود المكان!! ودموع الأم تنهمر كالمطر، وأخته تضع يدها على وجهها ترتعد من هول الصدمة، وأبوه شاخص ببصره لا يدري ماذا يقول ولا ماذا يفعل، الحزن يخيم على المكان، كيف لا؟ وهذا الولد الطموح ملاكم المستقبل أو الفنان المشهور، كيف به إذا استيقظ فوجد نفسه مبتور اليد اليمنى؟؟ فلن يستطيع الرسم، ولن يحقق أمله في الرياضة التي أحبها، بل لن يستطيع أن يخدم نفسه كما كان من قبل، الأب يجوب الدنيا بتفكيره يميناً وشمالاً، طولاً وعرضاً، ثم يرجع ويقول في نفسه:

- أنا السبب؛ لماذا صنعت ذلك؟ أنا لا أصلح لأن أكون أبًا أبدًا، كيف سأنظر في عيني عمران بعد ذلك؟ كيف سأتحمل رؤيته وهو غير قادر على خدمة نفسه؟

لقد دمرته، أنا حطمته، أنا قتلت موهبته، يا ليتني مت قبل أن أرى ذلك اليوم....

الأم:

- لقد حكم عليَّ أن أعيش في الهم، ويا ليته كان خطأً يتناسب مع هذه المصيبة، إنها قارورة عديمة القيمة!!

ابني البكر تحطم أمام عينيَّ، وأنا عاجزة عن عمل أي شيء، هل يمكنهم أخذ يدي ليستبدلوا بها يده المصابة؟ يا ليت هذا الأمر ينفع، سأسأل الطبيب، يا ليته يوافق، يارب يوافق، سيكون يوم المنى أن يوافقوا على ذلك، سبحان الله!! ماذا يحدث؟ لماذا وقعت هذه المصيبة؟ لأجل شخص واحد يغضب فيدمر الدنيا حوله؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!!

حنان:

- معقول؟؟ معقول؟ ألن أستطيع السلام على أخي مرة أخرى؟ ألن أمسك بيديه الاثنتين ونلعب معاً ونرقص معاً كسابق عهدنا؟ ألن نلعب لعبتنا الشعبية الشهيرة «لعبة شد الحبل»؟ من سيساعدني في الرسم والأنشطة المدرسية؟ لقد كان يدافع عني لو علم أن أحدًا نظر إلى نظرة سوء بعينه، كنا أربع أيادٍ نحمل كل شيء معًا، ولكنها ستصبح ثلاث أيادٍ فقط!!

لا لا لا.. أنا سأعوضه، سأكون بجانبه طول الوقت، سأكون بجانبه عندما يأكل؛ لأطعمه الأكل بيدي، لابد ألا يحس بتغيير أبدًا وأنا موجودة معه.

ساعة من الزمن مرت، جال فيها كل بخاطره..

يفتح باب غرفة العمليات بهدوء، ممرضة تجر سرير العمليات، البراءة ملقاة على السرير، عيناه مغمضتان، يداه ممدودتان، إحداهما بخمسة أصابع والأخرى يلفها الشاش الأبيض في موضع كفه وأصابعه، وقعت الأم مغشياً عليها، جرت البنت مسرعة إلى أخيها تقبله وتحتضنه، ألقت بنفسها على صدره، كأنها تريد أن تعطيه الحياة بحضنها الدافئ، وتطمئن قلبه بصدرها الحنون، الأب يرقب الأمر ويحاول إفاقة زوجته، وعيناه لا تكاد تفارق ولده، بالحركة البطيئة جداً تقع دموع الأخت على وجه أخيها، فيفتح عينيه، كاد أن يفيق من تأثير التخدير، أخذت أخته تحدثه:

- أخي، حبيبي، اطمئن، أنت بخير يا حبيبي، يفتح عينيه تارة ويغمضهما تارة أخرى، أفاقت أمه من الصدمة، وجلست بجانب طفلها، تضع يدها على صدره وتدعو له:
- أسأل الله أن تقوم من مرضك في سلامة يا حبيبي.

الأب واقف يظهر التماسك، لكن قلبه يرتعد من شدة وهول المشهد، نار تكاد تمزقه في كل جزء من أجزاء جسده، الطبيب يدخل بابتسامة رقيقة:

- قم يا بطل قم، لقد تأخرت في الإفاقة من التخدير جدًّا.

حركه الطبيب حتى استفاق، واطمأن على استقرار حالته، وخرج، لحظات تمر، عيون الجميع متوجهة إلى الولد تنتظر سماع صوته الرقراق، وماذا ستكون أول كلمة سينطق بها وتتحرك بها شفتاه؟ كلهم شوق أن يسمعوا صوته، ربما يطفئ شيئًا ما في قلوبهم، وبعينه الناعسة من تأثير التخدير وصوته المهزوز وإحساسه المرهف تحدث الولد:

- أبي، لا تغضب مني، إن شاء الله لن أفعل ذلك مرة أخرى.

انهارت الأم والبنت وانهمرت عيونهما بالبكاء، أمسكت البنت يد أخيها، وقالت:

- أنت لك ثلاث أيادٍ وليست يدًا واحدة، يداي الاثنتان معك دائماً، خرج الأب مسرعاً، لم يستطع أن يتحمل وحشيته في هذا الموقف، وهو يرى ضحيته أمامه، وليت هذه الضحية عدو لدود، أو مجرم قاتل، أو ظالم فاجر، إنه أحب أحبابه، فلذة كبده، وسنده، إنه ابنه..

تدخل الممرضة:

- من فضلكم، موعد الإبرة، أرجو أن تخرجوا من الغرفة، فإذا انتهيت ناديتكم.

خرجت الأم وابنتها، حركة هرج ومرج عند باب المستشفى، ناس كثيرون، أصوات تتعالى هنا وهناك، سرير عمليات عليه إنسان مضرج بالدماء، ما هذا؟

تساءلت الأم:

- سبحان الله!! لعله حادث مروع، دققت النظر، فإذا هو زوجها، صرخت بأعلى صوتها:
- لا لا لا، زوجي.. زوجي.. لماذا تتخلى عني في هذه الظروف؟؟ أصوات تناديها:
- لقد صدمته سيارة كانت مسرعة بالطريق، وفارق الحياة، سقطت زوجه مغشيًّا عليها للمرة الثانية، قام الولد حين سمع صراخ أمه، ووجد أباه على تلك الحال، ألقى بنفسه على صدره، وأخذ يجهش بالبكاء:
- أبي.. أبي.. حبيبي.. لماذا فعلت ذلك يا أبي؟ لماذا تتركنا الآن؟ أحتاج إليك يا أبي، أنا سامحتك والله.. ولست غاضباً منك، لقد كنت تريد تعليمي، أعلم أنك طيب القلب، لماذا تركتنا يا أبي؟؟

ووسط هذا الجو المشحون بالمشاعر القاسية يدخل رجل عليه سمت الوقار، يرتدي بدلة فاخرة، في هدوء مشوب بتعجب!

- أين صديقي؟! أبو عمران، لقد اتصل بي وقال: إنه يريدني في المستشفى، وإنه بخير.

أخبره الحاضرون أنه مات إثر حادث سيارة، لا حول ولا قوة إلا بالله... إنا لله وإنا إليه راجعون.. احتضن الرجل الولد وأخذ بيد البنت ودخلا الغرفة، صمت قصير، بعده قال الرجل:

- قوموا معي إلى السيارة.

عمران:

- لا، لن أذهب إلى البيت بعد غياب أبي.

الرجل:

- ومن قال إننا سنذهب إلى البيت؟

عمران:

- وأين سنذهب إذن؟

الرجل:

- عندي شقة جاهزة بكل ما تحتاجون إليه، تسكنون بها حتى تهدأ الأمور، ونفكر ماذا سنفعل.

انتهت مراسم العزاء، وصار هذا الرجل يمر عليهم كل يوم أو يومين يطمئن عليهم، ويخرج بالولد وأخته إلى الحدائق والمزارات السياحية، يقضون وقتًا يخفف عنهم من جو البيت الصعب، مرت بضعة أشهر.

زارهم الرجل وقال لهم:

- تقبلوا أن أكون والدًا لكم، وأكون معكم دائمًا؟ لقد عرضت الزواج على أمكم منذ زمن، لكن قدر الله وما شاء فعل، ما رأيكم؟ أتقبلون بي بينكم أم لا؟ التفتت البنت إلى أمها ونظرت إليها نظرة فيها ابتسامة من رأى النور بعد الظلام، وخيوط الأمل تبرق من بعد يأس!
- أمي، أتذكرين المنام الذي رأيته وقمت قلقة على أخي؟ الأم:
- نعم يا حنان، أذكره جيداً، ماذا تقصدين؟

حنان:

- قد تكون هذه اليد التي أخذت بيد أخي بعدما انكسر ظهره!!

ابتسمت الأم ابتسامة حياء، خافضة ببصرها إلى الأرض، لم يترك الرجل مجالاً للحوار بين حنان وأمها، ففاجأهم بخبر:

- لقد حجزت للسفر إلى فرنسا لعلاج يد ابننا، لو وافقتم سنذهب معًا ونقضي وقتًا طيبًا، ما رأيكم؟

القصة الخامسة: مناضل

تأليف: خديجة بيوسف

الدولة: المغرب

مناضـــل

«روحي تأبى الانصياع أيها الناس، مهما فعلتم من أفعال، ومهما رددتم من أقوال، أنا رجل يأبى الرضوخ، يوم ولدتني أمي، ولدتني حرًّا، مقيدًا فقط بعبادة الله الواحد الأحد، والآن أرفض رفضًا قاطعًا الخضوع لأمثالكم من بقايا الرجال.»

صوته يتردد في أروقة السجن بغضب مستعر، بجنون ظهرت آثاره على ملامح وجهه الفتية، مشوهة تلك التعابير الصابرة، والتقاسيم الراضية؛ لتستحيل لمجرد وجه مظلم لم تؤثر فيه إلا قذارة المكان برائحة متصاعدة من العفن المنتشر، وبقايا جرذان مقتولة في الأركان.

- أوتسمعون حديثي أيها الأنذال؟!

كرر بصياح وعيناه تركزان على نهاية الممر المسدود، حيث يركن على الأغلب حارس يسمعه الشتائم من حين لآخر، ويرفع صوت الراديو عمدًا في كل مرة يردد الصوت الأجنبي عمليات اغتيال رفاقه، وإعدام أصحابه.

- آه يا الله! لقد وجد اليأس طريقًا لصدري، وحكم روحي وشل رغباتي.

رددها بصوت منخفض مخافة أن تبلغ مسامع أحد غيره، فيدركون أن له نقطة ضعف يستهدفونه ويذلونه بها.

- لقد سجنتم جسدًا واحدًا خلف هذه الأروقة السفلية، لكن صيحة المقاومة ستمتد حتى تشمل ربوع الوطن كله، وبعدها لن تجدوا لكم منفذًا سوى الرحيل بمتاعكم كالجبناء، والهرب كالسفهاء.

صاح مجددًا وأصابعه الهزيلة تتكور في قبضة اصطدمت بالحاجز الحديدي الضخم، مصدرة دويًا تردد صداه للحظات عابرة قبل أن يتبدد في صمت.

- اخرس يا هذا.

جاءه صوت آمر من خلف المدخل، سرعان ما برزت هيأته في جسد عسكري ضخم ألقى عليه نظرة تهديدية صريحة، لم تحرك فيه ذرة من الخوف ولم تثر فيه أي ارتعاشة توتر؛ لأن روحه كانت تتشبع بإيمانها، وكان يزيدها قوة فوق قوة ذلك الشعاع من الانكسار الواضح خلف عيونهم، والذي يبجلونه بمحاولاتهم الفاشلة في دفعه للحديث بتعذيبه مرات ومرات.

- لي كامل الحق في الحصول على مصحف، وأريد أن أطالب بسجادة صلاة ودلو ماء.

أمر بصوت لم تتزعزع نبراته ولم تتردد حروفه، وعيناه القويتان تواجهان عيني خصمه الضيقتين، المحدودتي الأفق، والتي بالتأكيد شملته بنظرة مقيتة خاوية.

- حق؟!! أو تتحدث عن الحق بعدما فعلت؟! اخرس والزم مكانك، ساعات حياتك لم تعد بالكثيرة في جل الأحوال!

صاح فيه وهو يغلق النافذة الحديدية الصغيرة التي تمنحه الإطلالة الوحيدة على الحياة في ذلك المكان النائي، غرق في لجة مظلمة من الصمت الموحش، بالكاد تتردد في حنايا سجنه المقيت سوى همسات بعيدة لا تزيل عنه ضغط الوقت الطويل من العذاب الصامت، ولا ضغط الجسد المكلوم ضربًا شقيًا حطم ضلعا من أضلعه، وجعله يكتوي بنيران الألم بعيدًا عن هسيس أشباه الرجال هؤلاء.

آه من أيام كان الصبا فيها حقيقة رائقة، حيثما حل انتعشت الدنيا بحضوره وترقبته ببهجة لا يخفى عنه فيها إلا ما وراء الحقائق، حين كانت الشكوى تضرعًا لله، بعيدًا عن حال زرية أصبح التردد يقبض دفة قيادتها، حين كانت السعادة شمسًا مشرقة، وخيطًا من الأمطار اللطيفة بعد قيظ طويل، حين كان المرعى صاحبه، والأغنام رفاقه، وعود الناي صديقه الدائم.

آه يا روح الروح المتعبة، أين هو عن ماض خال من المتاعب؟ أين هو عن حرية كان عبيرها يغدق عليه من كل حدب؟ أين هو عن حضن أمه الذي يحتويه من برد أفكاره وظلمة خيالاته؟

يخيل إليه أنه يلمس ذلك الصبي الغر المرح، صاحب العينين المنزعجتين من شقاوة أشعة شمس تموز، المستلقي فوق سنابل العم المعطي، حيث ظل يراقب عصفورًا يشاكس زهرة شجرة خوخ ويتغزل بجمالها بتغاريد مرحة، دفعت بابتسامة أنيقة لشفتيه، وجعلت عضلات جسده المتشنجة من التعب تسترخي بهدوء.

تتبع تنقل العصفور من شجرة الخوخ إلى غصن صفصاف قريب منه، حيث استرخى هو الآخر متمتعًا بأشعة الشمس، راضيًا بصمت، هانئًا في وحدته، سعيدًا بحريته.

الحرية!

خاطب عصفوره الخيالي بابتسامة تعيسة، وتلمس في الظلمة الفراغ الخاوي عله يمسك الصورة الخيالية التي رسمها عقله.

«الحرية يا صديقي تستحق أن تدفع من أجلها ثمنًا عظيمًا، كأنها فاكهة شتوية تبقي عينيك على شجرتها دون أن تستطيع قطف ثمارها كما يجب، إلا حين يحين وقتها».

استطرد وأصابعه تنتهي إلى كرسي خشبي تعود أن يحدد به طريقه في ذلك المكان الواسع الضيق، الكبير الصغير.

الوقت يمضي بسرعة يا صديقي، يوم أمس وحسب كنت أستعد للسفر، وها أنا الآن بين قضبان هذا السجن أحتسب الأيام القليلة التي تبقيها الحياة لي، أجد في وحدتي بعض الراحة التي ضاعت في جوف صخب الدنيا وانفعالاتها.

طفرت عيناه دمعات خائنات، سرعان ما مسحها متأوهًا من الألم الذي سببه تحريك أعضائه الضعيفة، الفاقدة للقوة والقدرة، وأسرع يمسحها، علهم لا يفاجؤونه ثانية بدخولهم لزنزانته، واستنطاقه بمعداتهم الخبيثة.

ها هو الآن يذكر نفسه وهو شاب يحمل متاعه فوق ظهره: كيس زري يحمل بضع جلابيب صوف وسراويل من القطن، وقمصان أمه التي حرصت على إعدادها له قبيل رحيله، وقف على عتبة داره يرتقب السماء الحزينة بذهابه بعينين متشوقتين، بنظرات لم يتردد فيها لا الحزن ولا الصخب اللذان يحكمان روحه حاليًا، بل مجرد أمل عظيم، أمل في امتداد كبير لسعادة أبدية، لن يتردد لحظة في تحقيق جزء من أحلامه، وتصويبها نحو أهدافه، وترسيخ اللبنات الأولى لمصيره.

أقبلت أمه راكضة من وسط الدار وهي تحمل بعض الطعام الذي يشك أنها لم تحرص به على إبقاء ما يكفيهم منه إلا بسببه، وجد نفسه يعترض على ذبحهم واحدة من المعزات الثلاث التي يملكونها في سبيله، أمر لم يستحمل رؤيته وهو يرى التعلق الواضح به، والحب الذي ينضح من جميع تعابيرها تجاهه.

- لا أحتاج لكل هذا أمي!!

اعترض وهو يلمحها تدس شيئًا خفيًا في متاعه، لكن عناده لم يكن إلا طفرة من بحرها هي التي رفضت منه أي اعتراض يلفظه، وأي كلمة تنطق بها شفتاه، مؤكدة حديثها بدعاء طويل لا زالت كلماته تتردد في ثنايا عقله.

- اذهب يا بني، عل الله يجد لك في رحيلك سبيل الحق، وترسو مجاديف حياتك حيثما وجد الخير، ليقبل عليك أينما حللت وكيفما حللت.

قطعت كلماتها للحظات كي تمسح ما انبثق من الدموع من مقلتيها، قبل أن تردف بقلب مكلوم، ووجع مفطور:

- اذهب يا بني، أنا راضية عليك دنيا وآخرة، وأبوك أيضا، ابنِ لك حياة بعيدًا عن الشر والظالمين، واعلم أن الحق ينتصر، الحق ينتصر، الحق ينتصر.
- الحق ينتصر يا أماه!

صرخ بها وقبضته تضرب أرضية الزنزانة الإسفلتية، وصدى صوته يتكرر كوعد تمنى لو تصل حروفه لرفاقه، وتؤكد لهم أن النصر قريب.. النصر قريب.

فقط، بعض التضحية في سبيله، بعض الدماء التي ستلطخ الجدران أكيد، ثم بعد الوجع تسكن الندوب وتلتئم شيئًا فشيئًا، وتعود طيور المهجر لبيتها، وتشرق شمس يوم جديد، تشرق نهارًا بطعم حرية مغدوقة، وزوال كل التربص والحزن الخبيثين.

- الحق ينتصر!!

كرر مجاهد كبح دموعه الحارقة، وحشرجاته الخائفة.

أوليست حقيقة الموت مهولة في ترديد حروفها؟ أوليست مسكونة بالأوجاع والتوعدات العنيفة؟ في كل مرة يرددها تخنقه عبرة نادمة وحسرة مغلوبة، فهو لم يعانق أمه كما يجب في زيارتها الأخيرة له، لم يستنشق عبيرها الذي ود لو يلتصق بجسده فلا يتركه، كي يطمئن إلى أن وجودها قريب منه، حينها لن يتردد الخوف عليه كما يفعل، ولن تزعجه كوابيس من الهلع المتيقظ كأنه وحش كاسر يطمح لتمزيقه إربًا، حينها فقط ستسكن نفسه وستستقر أفكاره وستهدأ ثورات غضبه المتتالية.

حملته ذاكرته إلى يوم رمادي مظلم، نفض عنه فيه رداء التعب وهو يخبر مخدومه في الفرن التقليدي أنه راحل لإحضار بعض السخرة، حاملًا شيئًا من المال اليسير، قاصدًا سوق المدينة الشعبي.

هاله ذلك التجمع الكبير لناس احتشدوا بأعداد كثيرة وسط الساحة، فانضم لهم يسيره الفضول ورغبة الاستكشافِ حديثةِ العهدِ به.

ترقب بصمت رجلًا يخاطب قلوب الناس قبل عقولهم، غيرتهم الوطنية على بلادهم دون خضوعهم، القوة فيهم لا الضعف، وسمعه يخبرهم بصوت لم تتزعزع نبراته ولم تتردد حروفه:

- ما هي إلا قطرة من نهر لجي عميق هي هذه الحركة، لكنها القطرة الأولى لغيث لا يتوقف، قطرة ستزعزع حصونهم المبنية على استعمارنا وستطردهم من أرضنا، سيفيض هذا النهر يومًا، سيفيض عميقًا، وستطال مياهه الجامدة أجسادهم لتغرقها، نحن لا نسأل سفك الدماء ولا إراقتها، نحن نسأل الحرية منالًا، ونتطلع ليوم سنغادر فيه بيوتنا دون خوف مما سيؤول إليه حالنا، لقد تحملنا مرة ومرة، وقد ضاقت أنفاسنا بهذا الكم الهائل من الضغوط، سنطالب بحريتنا اليوم وغدا وبعد غد، وسنظل نطالب بها حتى نبلغ هدفنا!!

تهلل الحشد بصرخات مؤيدة، فانضم لهم هو الآخر ينشد الحرية، وقد دفعه حينها تهور شبابه واندفاع صغر عمره، ولم يدر وقتها أنه يضع اللبنة الأولى في طريق يتسلك فيه لبلوغ مسعاه، والوصول لهدفه، إلا بعد حين.

- سأنهض.

وجه الحديث لنفسه وهو يحتمل ثقل جسده وآلام أعضائه، مستطردًا بصوت لا تشوبه شائبة:

- سأنهض لأنني لا أريدهم أن يروني في ضعفي فيشمتون بي، سأنهض لأن ثقتي في الله كبيرة وإيماني به لن تسعه سعة، سأنهض لأن أمي لم تلدني جبانًا ضعيفًا، ولن تبتغي رؤية بِكرها متحسرًا باكيًا، سأنهض لأنني كنت على صواب ولا زلت عليه، وسأظل عليه حتى ينتزعوا بأسلحتهم روح المقاومة في، وما زلت أندد وأردد الحرية مطلبنا الأول، وغايتنا الأخيرة.

حبس صيحات ألمه المتهدجة، وسار حتى استقام جالسًا على كرسيه المهترئ الوحيد، ليتابع بنظراته الظامة الممتدة، ويصغي للحركات الخفيفة، قبل أن يتسرب لمسامعه صوت موسيقى لم تكن قادمة إلا من خلف جدار ذكرياته التي تجذبه جذبا لها، والتي تحثه على استرجاع مذاق السعادة والجمال، وتدفعه لتذكر ابنه الصغير، يوم كان يلعب بمرح، ويغني بفرح، تحثه على رؤية السعادة التي خلقها جو من الألفة والمودة، وصنعها شيء يسير من الرضى والسرور، خالقة بذلك معنًى للفرح وهدفًا للحياة.

- اسمع بني.

حثه بعبارته على إيلاء اهتمام بالغ له، وتشدق وجهه عن ابتسامة مداعبة حين رفع عينيه الصغيرتين لتراقبانه باهتمام بالغ، مسد له شعره المجعد، واستلطفه رابتًا على وجنته، وقبل جبهته قبلة سرقها الزمن منه، ولم يعد لها طعم يكفي، ثم ألح على أمه لتتركهما، كي يخبره بتأثر:

- عليك ألا تقبل للظلم طريقًا في حياتك، فإن رأيته واجهه، وإن أقبلت عليه هاجمه، واسمع مني هذه النصيحة؛ فهي تغنيك عن كل شيء: كن بارًا بأمك، ولا تعص لها أمرًا، وإن عايرك أحدهم بأبيك فاصبر، واصمت، ولا تؤنب الجاهلين بالحقائق، بني، أنا راض عليك بني، فارض أنت أيضًا على أبيك.

لقد حرم من تلك اللحظة التي يناشده فيها طفله باسمه، يمازحه ضاحكًا، يسمعه أولى إنجازاته.

حرم من كل ذلك وهو يجول في هذه الظامة الأبدية، يردد بصوت خافت أفكاره؛ عله لا يغرق في الحزن الوخيم، ولا يسيره اليأس الأعمى.

- أتعرف ما أنت مقبل عليه؟

سأله أحد الرجال الثلاثة الذين التقاهم مرة منذ حوالي الست سنوات، في زقاق مظلم لا يقصده الناس عادة.

- أنا متأكد من قراري.

أجاب بصوت واثق، وعيناه لا تتنحيان من فرط الإثارة والفرحة عن عيني مخاطبه.

- ومتأكد من نتائج هذا القرار؟

عاد الآخر يلح عليه؛ عله لا يكون شابًا طائشًا دفعه التهور إليهم، فيندم بعد حين ويخون ثقتهم.

أجابه بإيماءة من رأسه أولًا، ثم استطرد قائلًا:

- متأكد تمامًا، لقد أقبلت على هذا الرأي بعد أن فكرت في كل نقاط القوة والضعف فيه، وراض بما قدره الله لي، إن كان خيرًا فهو كذلك، وإن كان شرًا، فلي شيء يسير من القدرة على تحمله.

- ستتعرض للسجن يا صاحبي، قد يكون المؤبد، ولو سألت عن رجالنا فهم يتعرضون لأشد أنواع التعذيب هناك، نحن نعمل بسرية تامة، ولو انتهى بأحدنا خلف القضبان فلا أمل في استرجاعه، إلا بما كتبه الله له.

حدثه ثانيهم؛ عله يثبط عزمه، لكن لمعة الإصرار برقت كوهج من نار في عينيه، وشملت محادثه الأول الذي ربت على كتفه قائلًا:

- مرحبا بك بني في الحركة الوطنية، سيكتب اسمك إلى جانب كل من حمل سلاحه رافضًا ما احتملناه من ذل وهوان، وما صمتنا عليه من فساد وإفساد.
- رأيت الموت مرات متتاليات يا الله.

أقر بذلك وكفه تمسد ركبته الجريحة، وأصابع يده تتشابك بدعاء صامت، ليردف بعد لحظات:

- رأيته مرات ومرات، لكن القدر لم يختر لي إلا هذا الطريق، وأنا أمشي فوقه راضًا بما كتبه الله لي، صابرًا على كل ما حمله القضاء لي.
- اللهم فإن كان في سجني هذا طريق للحرية فروحي فداء لها، تضحية لا مفر منها لأجلها، وإن لم يكن فاجعله عتبة لذلك، وسرع بلوغنا لما ترتجيه نفوسنا، وتحيط به رغباتنا.

ختم حديثه حين تناهى لمسامعه صوت رتيب يصفع الأرض صفعًا، تتداخل فيه أصوات حديث رتيب وقهقهات خشنة ساخرة، لم يجفل حين فتح الباب فجأة، ولم ترمش عيناه كما توقعوا منه، بل لم تتسارع أنفاسه الرتيبة وهم يحلقون بأنظارهم فوق جسده الهزيل، الماثل على قطعة الخشب الضيقة تلك، المحدق في وجوههم بقوة أثارت نزق بعضهم، وسخرية البعض الآخر، لكنها أبدًا لم تثر فيه إلا حسًّا بالرضا والهناء، فها هو مصيره يقارب على الانتهاء، وها هي لمعة الرضا تسكن بهناء في مآقيه، تتابع حركاتهم البطيئة، وتحركاتهم المنزعجة.

لحظة من الجلال كهذه صادف أن حضرها بقلب يقظ وبمآق دامعة قبل سنة.

- ها هو مصيري قادم يا صديقي.

تمسكت أصابع صاحبه بكفه الخشنة، وتابعه بنظرات مشفقة باكية، سرعان ما نهره الآخر عليها وهو يقول بحدة:

- لا يخيل لي أني سأرى كل هذا الضعف فيك يا صاحبي، أو تظن خشيتي من الموت بأمر كبير!؟

حاول مقاطعته، لكن ضغطة من كفه اضطرته لالتزام الصمت، ومتابعة وجهه الشاحب الذي وطأته تجاعيد الزمن، وأثرت فيه خيوط الهرم، وظهرت عليه آثار سم دسوه بالمكر في طعامه فنحل جسده، وضعفت أعضاؤه، وبات مجرد شبحِ جسدٍ آيلٍ للسقوط.

- كلا يا صاحبي، لا يغرنك شكل جسدي، ولا منظر وجهي، أنا أتوق لهذه اللحظة منذ سنوات، ويفجعني أن تكون أنت من يبكيني هكذا، كأنه لم يبق لي في الدنيا أثر!!
- هو باق، أثرك باق يا مناضل! تحمل فقط حتى وصول الطبيب!

قاطعه بابتسامة سمجة زينت وجهه، ومرر راحة يده على وجنته الخشنة مداعبًا إياه بمرح لم يظهر منه إلا العجز والتعب:

- لا الطبيب ولا غيره يستطيعون مداواة ما أنا فيه، أنا والحمد لله أستطيع الموت بسلام، لم يرتكب ضميري إثمًا في غيري من الناس، لم أسرق أموالهم ولم آكل طعامهم، يرضيني أن أنضم لخالقي ورسوله، يرضيني أن أعتب بخطاي المتمهلة الوئيدة هذه أرضًا ستتسارع فيها مهرولة راكضة، تائقة فخورة.

ثم أردف وأصابعه تنزل من على وجنته، لتتلمس كتفه بصبر، بثقة وإيمان:

- الحرية يا صديقي جميلة، عذبة، وراقية عن الحديث عنها، لكن السجن الذي خلفه هدف وقضية لهو أعمق من ذلك، وأكثر وضوحًا، نحن نحارب لأجل حرية الوطن، وسنظل نحارب في كل مرة يحاول محتل غاشم أن يطبق حكمه على أرضنا، أنا فخور بي وبك يا صاحبي، فخور بثقتك العمياء في هدفك، فخور بطموحك الذي لم تزعزعه العثرات ولم تحل دونه الأطماع، فخور بكونك صاحبي، وآخر من تطاله نظراتي.
- آه يا صاحبي..

كرر بصوت منخفض وهو يستعيد وعيه من ماض يأبى إلا أن يظهر كاملًا هذا الصباح، وأصابعهم القاسية تحيط بذراعيه حبلًا غليظًا، وتسوقه بعنف خارج الزنزانة التي احتضنته لأشهر طوال، وربما ستحتضن غيره ممن مثله لأشهر طوال أخرى.

- لقد امتنعت عن قول شيء، وروح الندم التي تسكن غيري لم تعرف طريقها إلي.

استطرد بصوت بلغ مسامع من يقودونه، فتجاهلوا حديثه وحرصوا على جره بضراوة بالكاد تحملها، ولكنه أبى أن يرضخ لتعنتهم والحياة ستفارقه في دقائق، سيموت مرفوع الرأس، شامخ النفس، فهو لم يرتكب في حقهم إلا ما تجاسرت أيديهم على ارتكابه في حقهم، ولم يحمل الضغينة لأحد إلا من حملها له.

- توقف.

صوت آمر انبعث من خلفه، علِق معه أمل هزيل في الحياة سرعان ما قتله وهو يستمع لقائدهم يخاطبه: سننظر في قرار الإعدام إن صارحتنا بما تعرفه عن الحركة ومراكز المقاومين، وسنجري لك محاكمة نحرص فيها على التأكيد على مساعداتك لنا، فما رأيك؟

أجاب دون أن يتمهل بالتفكير:

- صفقة فاشلة، وأرفضها تمام الرفض.
- إذًا فسنحرص نحن الآخرون على أن تحصل على العقاب الذي تستحقه.

أجابه بنبرة مقيتة لم تزده إلا فخرًا ورضًا، رمقه بنظرة جامدة حادة قبل أن يسيره الجنديان خلفه في ذات الممرات التي قدم منها بيومه الأول هنا، حتى بلغوا مدخلًا نزعوا عنه فيه سترته القمحية، وجلبابه الرمادي الخشن، ووضعوا فوق رأسه كيسًا أسود حال دون رؤية ما أمامه، ثم ساقوه ثانية لمكان تركوه فيه جاثيًا، وعمدوا على تذليله ببضع كلمات لم يسمعها جيدًا، ولم يكن يطمح ليسمعها، فقد خاطبهم بصوت عال:

- أنتم لا تحولون بيني وبين النور بهذه الخرقة البشعة، فالذي أراه بقلبي لن تستطيعوا التماسه ولو بعد حين، وستظل أصواتنا تتردد في مسامعكم حتى تجيش صدوركم بالتحسر والندم.

ثم صمت لوهلة يلتمس أنفاسًا يستعيد بها بعضًا من قواه الخائرة ورأسه مرفوع كما هو، بينما عيناه مغمضتان تطمحان لانتهاء هذا الكابوس البشع، مضيفًا:

- تلك الراية التي عمدتم لطمرها ستطفح عاليًا في السماء، ستعانق سحبها وتداعب عصافيرها.
- اخرس.

لم يكترث بالنبرة الغاضبة التي جاءته من مكان غير بعيد، فقد أرهف السمع لأحد يتكلم ممن كانوا هناك في الساحة معه، ممن لم يستطع رؤيتهم ولا سماع صوتهم، ممن حكم عليهم جورًا مثله، واقتيدوا ضد رغباتهم لهذا المكان النائي المنعزل، حيث سيستشهدونهم دون أن يدركوا أن لفعلهم تجاههم رد فعل.

تردد الصوت الحازم بنبرة منخفضة، متعبة وحزينة، ترددت الأنشودة التي حفظها منذ أعوام طوال تعيده لطفولته، ولم يعرف معناها إلا وهو يقبل على الموت، والتعب ينخر جسده نخرًا.

- استعدوا.

صوت خشن ارتفع من مكان ليس ببعيد، يوجه أمره لصف من الجنود الواقفين خلف صف من المحكوم عليهم ظلمًا.

- سيحمل متاعه فوق ظهره، وسيسير راحلًا، هاربًا، راكضًا، لكنه سيعود في ليلة شتوية، محملًا بوعود وأحلام.

تردد الصوت مجددًا، بادئًا الأنشودة من جديد، مكررًا كلماتها وهو يتغنى باستمتاع مغاير هذه المرة.

- صوبوا.
- سيبني بيته فوق الهضبة، وسيفرد جناحيه لحلم هارب من أصله، ثم سينتظر وينتظر، حتى تعود الطيور من مهجرها.

- أطلقوا.

وانطلق وابل الرصاص ليقبع في خمسة أجساد متوازية الوقوف، متشابهة المصير، مختلفة الأحلام.

انتفض جسده للحظة قبل أن يقع على الأرض الندية، سقط غطاء الرأس عنه حين جاؤوا يتأكدون من موته، تدفقت الدماء من شفتيه حين حاول أن يبتسم، أعجزه الألم، أخرسته سكرات الموت، لكنه لم يتوقف عن جهاده الصامت وبريق ابتسامة متشققة ترتسم على شفتيه، بينما دمعة خائنة تنزل من مقلته، وتذوب على الأرض المعشوشبة كأنها لم تكن، ثم انتظر لحظة حتى توقف الألم قبل أن يغمض عينيه، ويستسلم لنوم أبدي رائق، وصدى صوت الأنشودة يتردد في الساحة المضرجة بالدماء.

«حتى تعود الطيور من مهجرها، حتى تعود الطيور من مهجرها».

حتى يعود المناضل لوطنه...

القصة السادسة: مشاهد بلا ألوان

تأليف: أسيل درويش

الدولة: لبنان

مشاهد بلا ألوان

كفى اصمتْ يا عقلي..

يجلس على كرسيه ودخان سيجارة يستلّ من روحه قبضة، يودّ أن يقاتل الزمن والبشر والقدر؛ كرسي خشبيّ يتأرجحُ به في عالم من الأحلامِ اللّامتناهيةِ وإذ به يقف متذمرًا غاضبًا، ثم يجلسُ مرة أخرى هادئًا من دون أن ينبسَ ببنتِ شفة.

ينفسُ سيجارةً ويرتعبُ من ذكرياتٍ تعشوشب في الماضي الهجين يتواصل على غيرِ عادة مع ذاك العالم الذي أراده قتيلًا وهو على قيد الحياة.

فهذه المرة الأولى التي أشعرُ فيها أنّني ضائعٌ، وكأنني لاجئٌ بلا هوية ولا أرض فما الصوابُ؟ أن نبيعَ الماضي لنشتريَ الغدَ، أم نترك الغد ليدِ القدرِ، ونحتفظ بالماضي الذي نملكه؟! وكأن الحياةَ تقتنصُ من روحي الغذاءَ المشوبَ بالواقعية المدمرة.

وإذ بدخان ينفض الغبارَ عن الواقعِ المرير الذي يستقرئ من الفقر لونًا ورائحةً، كأي شاب يافع يهرول وخلفه أحزمة الحياة للاتّكاءِ عليها لتأمينِ فتاتٍ من الخبزِ ورشفةِ ماءٍ نظيفةٍ، فمسكنٌ متواضعٌ يقتاتُ به من أسربةِ اللّيلِ المميتةِ، ولكنْ وجدَ الأيامَ تسيرُ به باتجاهٍ معاكسٍ ليصبحَ ذاك الصحفيّ البائسَ الذي طُردَ من عملهِ بسببِ سمّ قلمهِ المميتِ وبتصارع دائم مع عجلة الزّمن والفقر والحاجة.

أهز الكرسي وإذ بدمعةٍ تسقط سهوًا على ورقة في كتاب أحمله بين يدي يدعى «الحلم»، أحقًا من حقّنا أن نحلم؟! فلو حلمنا وتكاثرت أحلامنا ستبقى أحلامًا ما لم يكن هناك عمل وإصرار، لم لا أفعل كبطل الرّواية وأصنعُ قدري من جديد وأحاولُ أن أتخلصَ من تبعيّات الاختيارات الخاطئة؟ وما كان إلّا وأنْ نفدت علبةُ السّجائرِ وهربت الأفكار بعد حضور النّعاس العميق.

- أُرِيدُهَا بنكهةِ الفراولة لَوْ سمحت.

ومَا أَشْهَى المُثلّجات فِي هَذَا الحرِّ الْقَاتِل وخَاصَّةً عِنْدَ أبي بديع أَشْهر بَائع مُثَلَّجاتٍ فِي الْحَيّ، إِنَّه عَجُوزٌ ضَئِيلٌ قَضَى حَيَاتَهُ فِي صُنْعِ المثلّجات وبَيْعِ السّكاكر، فَبَعْد اللّيلة الشّاقة والطّويلة الَّتِي مَرَرْتُ بِهَا، أَرَدْتُ السَّيْر قَلِيلًا عَلَى الشَّاطِئِ الْمُثْقَلِ بهمومِ النَّاسِ ودُمُوعِهِم الَّتِي اِنْجَرَفَت مَدًّا وجُزُرًا مَعَ تَقَلّب أَمْواجِ البَحْرِ.

وأَنَا أَسِيرُ عَلَى الرَّصِيفِ الْمُمْتَلِئِ بِالنَّاسِ وعربات الخضارِ والْفَاكِهَةِ، داستْ قَدَمِي عَلَى آلة تصوير وكَأنه وَلَّت عَلَى كيانِها سنين طويلة، فألتقطُها عاهدًا أن أبيعها لتروي عَطَشي وتَسَكّنَ جُوعَي ولَو بشيءٍ بَسِيطٍ.

سرْتُ قَلِيلًا وانْعَطَفْتُ يَسَارًا إلى أَنْ أَصْبَحْتُ عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنَ الميناءِ، جَلَسْتُ عَلَى الشَّاطِئِ أَتَنَاوَلُ المثلّجات مُشْبِعًا نَظَرِي بزرقةِ الْبَحْر والْعَصَافِيرِ الَّتِي تَحُومُ فَوْقَه مبتعدًا عَن اكْتِظَاظِ النَّاسِ وضَجَّةِ الْمَصَانِع والسَّيَّارَات.

أتيتُ إليك يا بحر لعلّك تنقي فكري كنقائِك وتجعلُ أيّامي متقلبةً باردة كأمواجك ولكن فكيف بك بهذه القوّة والكتمان؟! فأنت محطّة أسرار بعض البشر وبلسم لهمومهم التي تربّعت رفوفًا وصفوفًا على قلوبهم، فما أرقك يا بحر وأنقاك، وما أقذر حكايات بعض البشر!

وَإِذْ بِصَوْت خَافتٍ يُتَمْتِمُ «حطمني أرجوك» يَقْطَع خُلْوَتِي الصباحية.

حطمني أَرْجُوكَ يَا هَذَا! فَالصَّوْتُ قَرِيبٌ لَكِنَّ مِنْ أَيْنَ؟

- انظر بجانبك وستعرف.

التفت لجانبيه متسائلًا، فَإِذ بها آلة التصوير توشوشه، يا للهراء كيف بك تتكلمين؟!

- أنا أَتَكَلَّم؟! أَنَا صَامتةٌ مُندهشةٌ مُنْذ وُقُوعِي عَلَى الْأَرْضِ، أُرَاقِب خُطُوَاتِ النَّاسِ، خائفة مِنْ أَنَّ يَرَانِي أَحَدٌ ويلتقطني، فَإِنِّي عَشِقْتُ الشَّارِعَ وانْسَجَمْتُ مَعَ الْأَرْضِ.
- تبْدُو عَلَى مَلامِح وَجْهِكَ الطَّيِّبَة والثَّقَافَة التي صقلها الطموحُ الْمَحْرُمُ فِي هَذَا الْبَلَدِ.

مَلامِحُ الدَّهْشَةِ والْحِيرَةِ اِحْتَلّتْ وَجْهِي، فَكَيْف لآلة بِالنُّطْقِ؟! أأنا مِنْ شِدَّةِ التَّعَبِ أَتَوَهّمُ وأَصْبَحْتُ مَجْنُونًا؟!

حَاشَاك مِنْ الْجُنُونِ، أَنَا أَنْطَقُ حِينَ أَصْبَحْت لا شيء وبِلا قِيمَةٍ، ورَأَيْت ما خلفَ الستار ولامست أَوْجَاعَ النَّاس وداس عليَّ حِذَاءٌ برجوازي وأيقنتُ أَنَّهُ غَنِيٌّ، وآخر مُهَتَرِئٌ أدركت أَنَّهُ فقيرٌ، فقصّتي بدأت عند أبي مصنع آلات التّصوير، من ثم في معرض جميل ممتلئٍ بأرقى وأغلى البضائع، فبين يد مصور طمّاع يعمل في مجلة وثائقيةٍ، من ثم قبعت في بيت بَائِعٍ فَقِيرٍ يَشْكُو مِنْ ضِيق الْحَال وكُلُّ مَا يتقاضاه فِي الدُّكَّانِ لَا يَكْفِي لِإِشْبَاعِ أَطْفَالِه ومَصَارِيف الْعَيْشِ، فبين يد طفل صغير عاشق لتصوير الزّهور وحفظ لحظاتِ حياته السّعيدة وفصولها المليئةِ بالألوان، إلى أَنْ أوقعتني أناملُ أم طِفْلة كفيفةٍ أكملت سيرها دُونَ أَنْ تدري.

لا أستطيعُ أَنْ أَصِفَ مَا رَأَيْتهُ تَحْتَ سِتَارِ اللَّيْلِ مِنْ جُوعٍ مُتَسَوِّل، وأَطْفَالٍ يسرقون فتات الطَّعَامِ من الحاويةِ وحَسْرَة فتياتٍ يرتدينَ ثيابًا مهترئةً أمام واجهةِ الفساتين المطرزة، فَكَيْف أبوح بلوعتي؟! يَوْمَ غدوت لتصوير الأشياء الشّنيعة، يوم عيناي رمقت صفقات الساسة الممزوجة بحبر الكذب وخَزَائِنهم الْمُتخمة بالدّولار ورفقائه وكروشهم الْمُمْتَلِئَة التي تتقيأ ما لَذّ وطَاب غَيْر مكترثين لأوضاعِ شِعْبِهم الْفَقِير الَّتِي أَكَلَتْ الضَّرَائِبُ والْمَصَارِيفُ الْباهظة مَا تَبَقَّى مِنْ جسدِهم النَّحِيلِ، ونخرت قَصَصَ حَيَاتِهم التي استحالت وقوفًا على أطلال الأمن والأمان، ويوم عدساتي أرخت قِصَّة الْمَوَاطِنِ الَّذي أَحْرَقَ نَفْسَه تَارِكًا أَطْفَالَهُ يتامى وكفيلهم الزّمن الهجين؟ وجريمة «تخلف الشّرف» لمراهقة لم ترتكبْ من ذنوب سوى أنها أحبّت، قاصرات باتوا شهداء في أكفان

تدعى الأقفاص الزّوجية، وفتيات غرس فيهن الاغتصاب أكبر ألم وباتت أجسادًا عارية من دون روح، بشاب متعلمٍ اقتطف ثمارَ البطالةِ وعلّقها على شجرة الهجرة، بمواطن يحتضرُ على عتبةِ الموتِ المجاني، وعيون الطّماعين الجشعين التي لم تكفيها الطبيعة كلّها ولم تملأها، أشتاق لرؤية الشلّالات النقية والزهور الملونة والفراشاتِ الّتي تتراقص بأنوثة دائمة، فيا ليتني ذو سلطة قوية لقتلتُ وحشَ النفايات المستولي على سهول الطبيعة الخضراء والواسعة، أترى هذا المصنع بجانبك؟ فمالكه هو مسؤول كبيرٌ في دولة، ألا ترى ما فعل بصفاء البحر؟! فجميع أنابيبه موجهة إلى جوفه، أيقنت أننا نعيش في عالم خطير فالإنسان حكمَ الطبيعة قبل أن يتعلمَ كيف يحكم نفسه.

في رأْيِك مِنْ بَعْدِ هَذَا الزلزال المهدد لمَعِيشَةِ المواطنين المسحوقة تحت أقدام العبودية المادية، فَمَن السَّبَب: أهم السياسيّون الْفَاسِدون وأطماعهم بالمستقبل، أم قعر التّخلفِ الذي نعيش فيه؟!

رَمَقْت عيناي الْبَاكِيَتان وأكْمَلْت حَدِيثَهَا.

لقد خارت قواي يا هذا، أشتاق لصفحات حياتي المعطّرة بالأيام الضّاحكةِ الممزوجةِ بإكليل الحب الصادقِ والروحِ النقيةِ، أشتاق لذلك الزمن عندما كنت أشعر بأنني معرضة لكمينٍ من جمال الطّبيعة الساذج، وعلى أن أحتاط من مكرِ الطبيعة بأرقى الصور وأجملها متأرجحة على سمفونية العصافير الرنّانة، إنني أكبر، لكن هل نضجت بالقدر الذي يستحقه عمري؟ لا أدري، كل ما أعرفه الآن أنّها حياتي، وهذا ما يحدث، فلمَ لم يكن قدري كقدر رفاقي المشبعين نظرهم بواجهة الحياة السعيدة؟! فأولهم تصور حفلات زفاف وتشهدُ على حبٍ طاهر مكللٍ بالزواجِ والحياة الكريمة، وأخرى على خشبة مسارحِ الطلابِ لتكون أولَ من يصفقُ لهم بمباركة لنجاحهم، أما الثانية فتستمتعُ بكل ثانية فهي الآلة الخاصّة لتصوير فخرنا «فيروز» فبين يدِ أب يلتقط أول صورةٍ لطفله الصغير تتربعُ الثالثة، أما الرابعة كابن سينا عاشرت أجناس الكون أجمعين ومتعت فكرها بحضاراتِ الكونِ المختلفة، أما أنا فتصفحت الصفحة الأولى من كتاب الكون وشاء لي الله أن أرافق السّياسة والموت والفقر والتّسول والكذب والخداع.

فأرجوك أعدني الى أحضان الطبيعة أو حطمني، فباتَ تلوثي أكبر من تلوثِ الأرض نفسها، أفلا تعلم أن الراقي فقط ينطق لغة الطّبيعة؟ تلك اللغة المشتركة مفعمة بالحياة تتجاوز الحدود السياسية والاجتماعية، فالإنسان ينشرح صدره في أحضان الطبيعة ويرفرف خياله مع أجنحة الطيور ليفتح للوصف ألف ألف باب، سئمت من قذارة هذا الواقع وتكحّلت عيناي بأوجاع المواطنين المرة.

- احتكرتني هذه المشاهد، وللأسف كُلُّ مَا أَراه على شاشات التّضليل الإعلامي من خطابات للحكام سنحاول، سنؤمن الكهرباء، عاش البلد، كلنا للوطن، وما يصاحبُ ذلك من قهقهات الشَّعْب الصفراءِ، فَيَا أَيُّهَا الطَّيِّب، ارْمَنِي فِي هَذَا الْبَحْرَ عَسَى عَذَابِي يستسلمُ في أفواهِ هذه القمامة المرمية عشاءً أخيرًا.

- قِصَّتُك يَا آلة هِيَ جُزْءٌ مِنْ معاناتي وواقِعي المُعاش، فَأَنَا شَابٌّ تخرجّتُ بِامْتِياز دون عكّازٍ أتّكئُ عليه لأداوي أبي المريض الَّذِي لَمْ يَتَعَالَجْ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ مضمونًا ويوم وجدتُ وظيفةً اعتُقلت فقط لأن حبر قلمي ممزوجٌ بطعمِ الحقِّ وحذفوا اسمي من النّقابة، وأَنَا عَاشِقٌ أنهشَه الفراق بأنيابِ العوزِ والحاجة، فلقد غادرتُ وتركتُ في وتين قلبي غصة تنهشني ليغدوَ عمري وكأنه ورقة خريف ذابلة، يا آلة، سئمت النّظرَ في المرآة ورؤية المستقبل في عينين سوداوين وأن أمشي كاللّقيط أرهقته ألاعيب القدر، فشبحُ سلمى يطارد سكينتي دائمًا. فإنني لا أطيق النّظر إلى عينيها الغائرتين في هذا الزمن الذي جلدَ حبّنا بسياط الخيانة، وغرقت في دوّامة المال وقدمت جسدها كعروس باهتةٍ تشبه الشّريرات في قصصِ الحبِّ، بعد أن قدمتُ عمري قربانًا بين يديها أصابت قلبي بسهم مازال ينزف جرحهُ حتى اليوم، ومع ذلك لم أستطع أن أكرهَها وظلّت في قلبي كتمثال يكفّر عن ذنوبه، فلقد مضى يومٌ وشهور وسنواتٌ ولم أشعر بعمري التي أهلكته متطلباتُ الحياةِ إلا وقد أصبحَ مدفونًا في عداد الأحلامِ الميتة، فأنا مَوَاطِن من بلدٍ عربيٍّ أُصارعُ الْحَيَاةَ وَالحياة تُصارعني!
- ولكِن أأرميكِ لترتاحي؟ أَم أرجعكَ للشّارع؟ فَأَنْت حلمٌ لعاشق الألوان ونقمةٌ على هؤلاء المخادعين الذينَ أباحوا الطّمع في لعبةِ الشّطرنج، استطاعت عدساتك أن تؤرخَ فصلًا جديدًا في حكايات الساسة ومطامعهم ولكنكَ أنتَ آلة ولم تقوي على العيش في بلدنا ولا الغوص في واقعِنا، فيا ليتني آلة مثلك صغيرة الحجم، لا تريد سوى إشباع نظرها بجمال الطّبيعةِ وأسرارِها، فهلْ يوجد مفر من واقعي؟ فهل سنظلُّ بأقنعةِ الخداعِ والكذبِ مرتدين قبعات حزبيةٍ لمصالحِ الشخصيةِ، فحتّى الألوان في بلدنا لم تعد ألوانًا، بل رموزًا للتعريفِ عن كتلة، اختفت بهجةُ الحياةِ يا آلة، فلو تربّعت الأيام على عرشِ الأعيادِ لرأينا الفقيرَ ينظرُ للمطاعم وأولاده يبكون، فأنا كمواطن ما اقترفته من ذنب سوى أنّني أردتُ أن ألامسَ أوجاعَ الناس؟

أن يصفعهم قلمي تلك الصفعةَ الموقظة لضميرهم من جديد، يُقال «الساكت عن الحقّ شيطان أخرس»، فما حال الشّياطين المتزايدة في يومنا هذا؟ فلا أعرف منذ متى وأنت حية لكن أنا على يقينٍ أنني قضيت ثمانية عشر عامًا وأنا أتوعّد لغد أفضلَ كما قالوا لنا، وأن نبنيَ وطنًا يصمد من جيل إلى جيل، أفلسنا كلّنا للوطن؟ أم أنّه أنشودة ملحنها ذاق طعمَ الفقرِ والمرارة وأراد ذاك الغدَ الجميل! تريدين السّلام يا آلة! ماذا نقول نحن البشر؟! الذي نهش الفقر عظامَنا؟! هل ذقت طعم الجوع من قبل؟! وأن تنامي وبطنك مربوطة بمنديلٍ لتخفّفي ألمَ الجوع؟! أو أن تفقدي أعز ما يملكه قلبك ومن سيف لك؟! هل وقفتِ في طابورِ المعاملات الرسميةِ ساعاتٍ وأن يحتلّ صاحب الواسطة دورك؟ هل ركبت الباص العام وتحملت الاكتظاظَ والروائحَ من أجلِ لقمةِ العيشِ الشريفةِ؟ فلقدْ رأيتُ أختي الصغيرةَ الّتي قضيتُ معها نصف عمري معلقةً على الشرفةِ تاركةً أطفالَها لأبيهم المعنفِ مسلمةً تاركةً روحهَا في قبضةِ الله، لقد عاشتْ دقائقَ حياتها كلّها بوجعٍ، إذلال، إهانة، ضرب وكان صمتُها لأنّ الطّلاق عيب يحفزه على جلد جسدِها وروحها أكثر فأكثر إلى أن يصلَ صوتُها لسابعِ سماء، وأن يتخدّرَ جسدُها النّحيل من كثرة الضربِ، فأختي قالتْ لي ذاتَ مرةٍ أنّه يجبُرها على قول أنا فقط امرأة، أنت الأقوى، أنت الأقوى! فقط للإحساس بأنه رجلٌ وقوّام عليها، فأنا يا

آلة لم يبقَ لي من فتاتِ أختي سوى قبر مظلم دفنت فيه شهيدة الأمومة آه... آه يا آلة، ما أجملها عروس لا تشبهُ أحدًا بفستانِها الأبيضِ، يا ليتني مزّقت قيود التقاليدِ والمحرماتِ فلما كانت الآن ترقد في قبرها، فهي تخشى الظّلام، كم أودّ أن أقبّلَ تراب قبرها خجلًا، فمنذ انتحارها وأنا لا أسامح نفسي فماذا كانت تطلبُ منّي؟ الحريّة؟ وأن تبعث الروح والمشاعر الممزوجة بالحياة اللائقة من جديد.

- أعلم يا آلة أنّنا قد نصادف قصصًا تُبكي الحجرَ، فالدّموعُ بخار الرّوح المتألّمة والطّاهرة، عجبًا فأنتِ مرهفة الإحساسِ أكثر من بعضِ البشر!!

عجيب! ما كان موقف أمّكِ من مقتل أختك؟! واحسرتاه على شبابِها المخضرمِ بالإهانات والضربِ، كيف سمحتَ لها؟! ألستَ أخاها الكبير؟!

اغرورقت دموعها قبل أن تنطقَ كلمتها الأخيرة.

كفى يا آلة، أرجوك، فبينَ القبورِ الهادئة هناك روح أحبّها رحلتْ إلى الأجل البعيدِ، وأنا في السابعة من عمري تدعى أمّي، كانت تعيش حياتها من قلة الموتِ، أذكر جيدًا يوم كانت تجمعنا على سفرة الطعامِ بابتسامة بهيّةٍ وحتّى يوميَ هذا أشعر بأناملِها تداعبُ شعري، أمّا قصصها المشوقة بصوتِها النّاعم.....

موت أمّي أيقظَ في مشاعرَ لم أعهدْها من قبل، فأيقنتُ أن الموتَ الحقيقيّ هو موتُ القلوبِ الحيةِ الفائضةِ بالمشاعرِ ولا أريد من الحياةِ سوى الموت في بلدٍ غريبٍ، على أرض بعيدةٍ، وأن يأكلَني الطيرُ وتمطرَ على فتات جثتي، ألمْ أقلْ لك أن الحياةَ أقسى مما تتصورين؟! أأرميكِ لترتاحي؟ فالعيشُ معنا موجعٌ أكثر من الموت، فما بالك تعيشينَ بنصفِ مر وعجلة المرضِ والموتِ يلاحقنك؟ فأنت آلة بسيطةٌ أرادتْ أن تشبعَ نظرهَا ببدائعِ الخالقِ ولوحاتِه الزاهيةِ، سوف أرميكِ عسى عذابك ينتهي، فالبحرُ عالمٌ نقيٌ لا يغوصُ فيه سوى من فهمَ رموز الحياةِ، لا لا! لن أرمي.

يا «أفندي»، أنا رجلٌ بسيطٌ لديّ طفلٌ مريضٌ مهووس بتصوير الطيورِ والجبالِ كما الزهور وتراني أراه لا يفارقُ آلته بتاتًا ليؤرخَ في صحيفةِ ذكرياتهِ ذكرياتنا السعيدة، ولكن أشهدُه اليومَ في حزنٍ دائمٍ بعدما بعثُ آلته لأمٍّ طفلةٍ كفيفةٍ، فلم يكن باليدِ حيلة، فصوتُ أفواهِ صغاري الجائعة نخرت جدران المنزلِ، ولكن عاهدتُ نفسي أن أعيدَ له آلته، ولم يتسنَّ لي شراؤُها بسبب ضيقِ حالي، وقبلَ أن يكملَ حديثَهُ قفزتْ آلةُ التصويرِ فرحةً وبدأتْ ترقصُ قائلةً: هذا سمير عاشقي الصغير، وداعًا لمشاهدَ بلا ألوان!

أكملتُ سيري إلى البيتِ بعينينِ مكحلتينِ بدموع الأملِ لأكملَ قراءةَ رواية الحلم أتمتم: وداعًا لمشاهدَ بلا ألوان!

القصة السابعة: القدر المشؤوم

تأليف: سعيدة البحري

الدولة: المغرب

القدر المشؤوم

هناك بأعالي الجبال حيث يسكن المنسيون، كتلة مثبتة بقمة الجبل، تظنها على حافة السقوط، منظر مهول ومرعب. وهذا ليس الخطر الوحيد الذي يهددها؛ فقرية كتامة بأعالي جبال الأطلس تحف بالمخاطر، هناك حيث البيوت من طين وقصب، فكيف لا تهددها الأمطار والثلوج وهي زائرهم المخيف الذي يتردد عليهم على مدار السنة.

وكم من روح انتقلت إلى بارئها بعد أن كان البسطاء ملتفين حول المائدة وآنية العصيدة عليها، تمدهم هذه الأخيرة بالدفء بعد الحطب، لتحل الفاجعة من دون سابق إنذار..

هناك الفلاحة مصدر رزق الأنام، من زرع وحصد، كل بقطعته الأرضية، لا أحد يعتدي على حدود الآخر وملكه على الرغم من بساطة عيشهم وأميتهم؛ فالوعي غير مقترن بالأمية.

كتامة هناك، حيث حقوق الطفل لا أثر ولا وقع لها على مسامع الكبار، فما بالك بالصغار، حيث الكتاب مكان تمدرس الصغار من الذكور، منذ تعلمهم نطق بعض الكلمات المتقطعة، تبدأ رحلتهم جيئة وذهابًا إليه، حيث يحفظ لهم القرآن بموازاة مع العمل في الحقول، إلى حين بلوغ سن السادسة عشر؛ موعد فصل الشبل وإبعاده عن أمه وعن بلدته؛ لتقدم له دراهم معدودات لا تسمن ولا تغني من جوع لضمان تنقله إلى المدينة حيث هناك تبدأ رحلته وتسابقه مع الزمن. إنه ذو مسؤولية الآن، بحث عن العمل، نوم في الأزقة وأكل من فتاتها، تتقاذفه الأرجل من ركن لآخر، ضرب وتوبيخ من «المعلم»، لكن لا أحد يسمع أنينه إلا خالقه، يبقى همه الوحيد هو تحضير وإعداد ذلك المبلغ من المال الذي سيقدمه لأبيه حين عودته في كل مناسبة عيد، هذا وإن حصل، فمنهم من غادر وانقطع تيار أخباره.

هكذا تسير حياة البؤساء من الذكور، أما الإناث فذاك حديث آخر ومعضلة أكبر؛ فمنذ بلوغهن سن التاسعة، يستوجب عليهن التعلم، لا تعلم الأرقام أو الحروف أو القرآن على الأقل كي يصلن منزلة الذكور، بل إنه تعلم أشغال المنزل، من طبخ وغسل وكنس إلى رعي وجلب للماء والحطب على بعد أميال وأميال، في القيظ والبرد على السواء.

إنهن بريئات وصغيرات يلعبن بالدمى خشية من أن يراهن أحد فينلن أشد العقاب؛ فقاطنة هذه البقعة من الأرض لا يدركون مفهوم الطفولة، بل إنها محظورة من قواميسهم، صدق من قال «إنهم المنسيون المعذبون.»

إيطو إحدى تلك البائسات، ذات الخمس عشرة سنة، تحظى بجمال كالقمر، من أجمل فتيات القرية، طويلة القامة، معتدلة البنية، ذات عيون عسلية اللون، حواجب مكثفة، شعر رطب وغرة تزيدها لطافة، تعيش بين أكناف عائلتها الصغيرة، أبوها محمد أو الفلاح موحا كما يناديه الجميع؛ رجل يبلغ الخمسين، يعلو الشيبُ لحيته، والغضبُ محياه؛ كيف لا وهو الشخص السلطوي سريع الانفعال.

مي زبيدة تلك الوديعة اللطيفة، في الثلاثينيات من عمرها، تلك التي ضاعت وتبخرت أحلامها منذ يوم حلت على هذه القرية اللعينة، إنها بدورها ضحية ولكن ما بيدها صنعة. لا شيء باستطاعته مخالفة القدر، إنه قدر البائسة.

ميمون الأخ الوحيد لإيطو، يبلغ سبعَ عشرةَ سنة، غادر منذ سنة إلى مدينة طنجة للعمل أو بلغة أخرى ليلقى حتفه، فمن يدري؛ هو وقدره.

يامنة التي قدر عليها أن تمضي ما تبقى من عمرها في ظلمة حالكة، إنها ضحية أعالي الجبال، خانها نورُ بصرها، يومها كانت ترعى كعادتها، إلا أن الضباب كان يغطي الجبال؛ لتتعسر بذلك الرؤية لتتعثر ويلتطم رأسها بصخرة؛ حياتها الآن شبيهة بالعدم.

ها هي ذي إيطو تستيقظ من نومها الثقيل على وقع صياح الديكة كالعادة. إنها السادسة صباحا كما تشير عقارب منبهها، لتبدأ يومها بخير ما يكون. إنها صلاة الفجر، بعدها تنطلق لحلب البقرة؛ لتوفير الحليب لوجبة الفطور، وتراها توقد النار في الأثافي مستخدمةً الحطبَ لطهي الحساء والخبز داخل مطبخ تقليدي يملأ السخامُ جدرانه الأربعة.

حول مائدة الإفطار، تجلس الأم رفقة إيطو ويامنة في انتظار انضمام الأب إليهن. بعد طول انتظار ها هو ذا أخيرًا قادم برداء العمل وبيده قفته كالعادة. يجلس القرفصاء، ويبدأ الجميع فطوره دون نبس ببنت شفة، حتى إذا أنهى الجميع فطوره، انصرف كلٌّ منهم لحال سبيله؛ الأب إلى الحقول، الأم لترعى وإيطو بالمنزل تتولى أشغاله، وتلقي بالًا لأختها يامنة التي لم يعد بإمكانها القيام بأي شيء.

مع آذان صلاة العشاء والظلام قد حل بأرجاء المعمورة، اتجه الأب للكتاب لأداء الصلاة بعد أن قضى يومًا شاقًّا في الحقول، إنه موعد تنفس الصعداء بعد أدائهم الصلاة جماعة. ها هو ذا موحا يخرج ليصادف جاره الفلاح حمو أعرج القرية؛ ذا الخمسة والأربعين عامًا. تُوفي والداه منذ أن كان طفلًا؛ جراء انهيار منزلهم، ليبقى وحيدًا يسكن منزلًا بسيطًا بجوار كتَّاب القرية، ورغم بساطته إلا أنه يقيه بردَ الشتاء وحرَّ الصيف.

بادر حمو السيد موحا بنبرة يأس بعد إلقاء التحية:

- كما تعلم يا موحا إني مللت الوحدة حقًّا، طال الزمن وأنا وحيد في هذه القرية، لا والدان ولا أولاد، سأحيا وأموت هنا وحيدًا كأنني لم أكن، لا سلف لي ولا خلف أتركه، لذا فانا بحاجة إلى امرأة تؤنس وحدتي، وتخفف عني أعباء الزمن وأسقامه، ولهذا السبب فإنني قصدتكم لأتقدم بطلب يد ابنتكم إيطو، أجابه موحا وعيناه تعكسان ضوء القمر:
- إنه لشرف لي يا حمو ولن أجد صهرًا أحسن منك.

وفي هذه اللحظة، بدا قلب حمو كأنه ذو أجنحة، يرفرف عاليًا والسعادة تغمره؛ لطالما كان هذا حلمه فها هو ذا أمامه يتحقق، فقال متلعثمًا:

- إذًا، إذًا ليكن موعدنا مساء الغد إن شاء الله، سآتي بمعية الفقيه لقراءة الفاتحة.

في مكان آخر، حيث الأم وابنتاها جالسات حول مائدة العشاء، والعياء يعلو محياهن في انتظار قدوم الأب.

بعد ساعات، ها هو ذا يدخل دون إلقاء التحية كعادته، مصوبًا عينيه الممتلئتين حقدًا لابنته إيطو، سرت قشعريرة جسد المسكينة، ظنت أنها اقترفت جرمًا أو ما شابه، لكنها استفاقت من وساوسها حين طلب من أمها بعجرفية أن تقوم وتلحقه إلى المطبخ، حان دورها لتستشعر ما كان يتملك ابنتها قبل لحظات، خاطبها قائلًا ورأسه مستقر في سابع السماوات:

- إن لنا مساء الغد ضيوفًا، وعلى إيطو حسن التصرف.

وغادر المكان بسرعة البرق دون ذكر الموضوع الأهم، وما المبتغى من هذه الضيافة والزيارة.

غدًا مساء، تحت ضوء الشموع تقبع إيطو رفقة أمها في المطبخ وهما منشغلتان بتحضير العشاء، بعد برهة تسلل إلى مسامع إيطو وقع دقات على الباب، إنه حمو وفقيه القرية، إنهما في الموعد، الأب هو من تكفل بكل شيء يخص هذا التضييف، إيطو وأمها اكتفتا بلوازم المطبخ، إلا أن إيطو بذلك الفضول الذي ينحتها ويحدث صراخًا داخل مخيخها، أخذت تتسلل لتسترق السمع عما يدور بينهم، أما بخصوص من يكونون، فهي على علم، فحينما كانوا على العشاء سبق وأن ذهبت وألقت عليهم نظرة من دون أن يروها لتعرف بذلك أنه حمو والفقيه، ويا ليتها لم تكررها للمرة الثانية، فعلى الأقل كانت ستحظى بنوم هنيء تلك الليلة فقط.

قال الفقيه مخاطبًا موحا وحمو:

- وبما أن الطرفين معًا على قبول تام، فاللهم بارك.

التقط منه موحا الكلام فقال:

- والعرس بعد خمسة أيام بإذن المولى، ما رأيك يا حمو؟ فأجابه:
- ليكن ذلك بحول الله تعالى.

تدخل الفقيه:

- إذًا، باسم الله على بركة الله نقرأ الفاتحة.

كلها كلمات وقعت على مسامع البائسة، والتي كانت بمثابة دبابيس تدس في قلبها العفيف، فيا للمسكينة! فكيف لها وهي لا تزال طفلة التعامل مع شخص فرض عليها وهو في عمر أبيها؟ فكيف لطفلة تحمل كامل المسؤولية وهي بنفسها غير مسؤولة عن نفسها

بين عشية وضحاها، أعلن عن انهيار أبراج أحلامها والتي كانت تشيد فيها دهرًا مضى، هي تلك الآدمية التي تظل عاكفة تدعو ربها؛ كي لا تلاقي المصيرَ نفسَه الذي لاقته أمُّها وقريناتُها، لكن شاءت الأقدار أن يتم تَكرار السيناريو البئيس نفسُه؛ إنه اغتصاب طفولة بريئة لم تكتمل بعد.

هرولت إيطو إلى أحضان أمها بعد أن أخبرتها بما كان يجري، لتطلق العنان لدموعها، واكتفت الأم بمعانقتها، وهنا استحضرت الأم ذكرياتها؛ جسد أمام أعينها المشهد الأليم نفسَه الذي مرت به هي الأخرى، فتذكرت الآلام والأنين والإحباط لتشارك بهذا ابنتها الدموع وتتحسر على مصير فلذة كبدها.

مرت الأربع أيام كلمح البصر، واقترب موعد حفلة العرس، الكل سعيد ما عدا العروس، إن مررت بها تجدها غارقة في أفكارها، الهالات تحيط بعينيها عسليتي اللون، الذابلتان كذبول زهور الخريف، لا النوم يطرق بابها ولا شهية طعام تحسها.

أتى اليوم الموعود، النساء في مجمعهن، فئة منهن منشغلة بتحضير الخبز من الفرن الحجري التقليدي، وفئة أخرى تتمتع بما لذ وطاب من الفنون، زغاريد وأهازيج علت المكان، كلها أصوات تسمع لدى إيطو صراخًا وبكاءً، فهذا أشبه بيوم إعدامها لا زواجها، فها هي ذي الجميلة تجلس بين صديقاتها في الغرفة، ها هنا من تزين لها وجهها بمختلف النقوش والإثمد (الكحل)، وأخرى تصفف شعرها وأخرى تخضب رجليها وأياديها بالحناء، إلى أن أنهين تزيينها.

إيطو بجلبابها الأحمر، وبرنسها الأبيض، وبلغتها الصفراء، براءة هي تلك التي تشع من عينيها وتعكسها المرآة، لحظة، دخل الغرفة أخوها ميمون الذي وصل لتوه، نظراتها تحمل من الحزن ما يكفيها، عناق حار هو ذاك الذي استقبلته به، أوشكت دموعها على الإفلات، إلا أن أخاها بادرها قائلًا:

- لا تخافي ولا تحزني، إني أخوك، وهذا العرس لن يكتمل؛ لقد حضرت بنفسي كل شيء، نعم سنهرب؛ نزلت هذه الكلمة بردًا وسلامًا على روح إيطو منكسرة الجناحين فأعادت النبض لحياتها، لم تتردد إيطو ولو لحظة لتجيبه:
- نعم، نعم كنت أعلم أن إلهي سيرسل لي أحدهم، كنت أعلم أنه لن يخذلني.

فأخذ ميمون يشرح لها خطة هروبهما وكيف ومتى ستتم.

هناك بالحَوش، المكان بدا شبه خال من الأنام، إنها الثانية صباحًا، جلهم قد تعب وخلد إلى النوم، دخلت الأم الغرفة لتطمئن على ابنتها، وهنا كانت المفاجأة المأساوية بانتظارها؛ الأم لم تجد إيطو فأخذت تبحث في الأرجاء ظنًّا منها أنها بصحبة رفيقاتها بأحد الأركان فلم تجدها لتهرول البائسة وتخبر موحا فيخرج هذا الأخير رفقة آخرين للبحث عنها في أرجاء القرية، لكن مع الأسف الشديد لم يجدوا لها وقعًا ولا أثرًا.

في مكان آخر، إيطو مستلقية جنب أخيها ميمون في سيارة هوندا وقد علمت أنها الآن في مأمن من الوحوش التي أرادت التهامها، ليطرق النوم بابها بعد تفكير طويل وبكاء مرير، نار فراق أمها وأختها تلتهب روحها الطاهرة، لكن ما عساها تفعل وتصنع؟ استشعرت الطليقة حركة أيادٍ توقظها، فتحت عينتيها البراقتين لتجد أخاها بقربها، وهو يقول بصوت تعلوه الطمأنينة: حمدًا لله على سلامتنا، لقد وصلنا يا أختي إيطو، فهلم بنا.

نزل العصفوران من السيارة، لتندهش إيطو مما تراه أمامها؛ بنايات وعمران، سيارات وقاطرات، أنام يملؤون كل بقعة لاحت إليها بصرها، وكل أعينهم تتجه صوبها، يكادون يخطفونها بنظراتهم، الموجهة لملاك بريء على هيئة إنسان. قبض أخوها بمعصمها وشد عليه لتبدأ رحلتهما تجاه ما خطه لهما حبر الأقدار.

حط ميمون وإيطو رحالهما أمام منزل كبير، محاط بسور وأشجار، وورود تطل من أعلاه، أعجبت إيطو بذلك المنظر وما زاد إعجابها أنه ليس المنزل الوحيد هناك، فيوجد العديد بشكل وعمارة مختلفة، ما لم تره عينا إيطو قط. قاطع إعجابها وذهولها أخوها بصوته الخشن:

- كما ترين إيطو، فأنا ليس بوسعي مرافقتك، فأموري هنا لم تستو بعد، وإنني أخاف عليك، فكلانا غريب هنا، لذا علينا بالصبر إن أردنا بلوغ مبتغانا وفي القريب سنجتمع، ولهذا السبب فأنا بحثت لك عن عمل هنا بهذا الحي المرموق، ستعملين بهذا المنزل (يشير إليه) لدى سيدة طاعنة في السن اسمها أمينة تعيش بمفردها، لا زوج لها ولا أبناء، وإنني أرى سلامتك عندها، فباستقرارك هنا لن أخشى عليك شيئًا ولن ينشغل بالي معك طوال الوقت.

بعد تردد، أجابته إيطو وجرحها يزداد عمقًا:

- يا أسفاه، في الأول ابتعدت عن أمي وأختي وقريتي، والآن يحين دورك أنت أيضًا. آمنت بالله وبقدره خيره وشره، وكلت أمري لله.

وبعد أن تبادلا العناق، وقبل أن يغادر ميمون خاطبها قائلًا:

- لا تخشي عليّ شيئًا، وإن شاء الله سأزورك على الدوام ما استطعت ورسم ابتسامة على شفتيه مسترسلًا:
- كوني مطيعة كما ألفتك، دمت في رعاية الخالق.

وهكذا أمضت إيطو عامها الأول لدى السيدة أمينة، والتي كانت لها خير أم قبل أن تكون لها سيدة، توفر لها العطف والحب والحنان والأمان قبل المأكل والمشرب والملبس، لم توبخها قط، بل كانت لها الرفيقة والمؤنسة التي تعلمت منها الشيء الكثير، وستتعلم المزيد في فترة مكوثها عندها، فها هي ذي إيطو تتقن مهارتي القراءة والكتابة، وما هذا إلا بفضل خالقها وبمساعدة من أمها الثانية والتي سخرها الله إليها. كانت إيطو كلما شعرت بالحزن والحنين والاشتياق لأمها وأختها، تتلو آيات من الذكر الحكيم؛

شفاء الروح والقلب، وبلسم الهموم إلى أن يذهب عنها الهم والغم، وكانت دائمًا ما تدون على مذكراتها والسيدة أمينة تأخذ بيدها وتصحح لها الأخطاء إن وجدت، وكانت تفتخر بها دومًا وتهنئها على خفتها وفطنتها وذكائها، وكانت سعادة إيطو تكتمل إن أتى ميمون لزيارتها، إنها شبيهة العصفورة المحلقة في أعالي السماء.

لكن بعد عامها هذا، أصبحت زيارات أخيها لها تتقلص يومًا بعد يوم إلى أن انقطعت عنها أخباره. مرت سنة ومرت سنتان، لكن لا أخبار عنه ولا وقع ولا أثر له، لتدخل إيطو دوامة حزن وإحباط ويزداد حزنها مع ازدياد مرض وسوء صحة السيدة أمينة؛ فها هي ذي تلزم الفراش ولا حركة.

أتى اليوم الذي غيرت فيه المياه مجراها لتغير بذلك إيطو طريقها رغمًا عنها؛ يوم وفاة السيدة أمينة، بعد صراع طويل مع المرض لينتصر هذا الأخير وتستولي الدولة على ممتلكاتها، وتجد إيطو نفسها بين عشية وضحاها عرضة للشارع بنفسية مدمرة وروح منكسرة بين شخوص ووجوه تجهلها. لا ملجأ، ولا مسكن لها، ولا شخص يأخذ بيدها ويرشدها كأخيها، لكن سرعان ما تفطنت لأمر، ستذهب وتبحث عن عمل عند عائلة أخرى، وهو ما حدث بالفعل؛ استأنفت إيطو العمل لدى عائلة المختاري بالحي نفسِه الذي كانت تقطنه هي والسيدة أمينة؛ عائلة المختاري المكونة من زوجين، رشيد وزوجته كوثر وابنيهما إسراء وياسين اللذان تعلقا بإيطو أيما تعلق، وحلت محل أختهم الكبرى التي تمازحهم وتداعبهم وترشدهم لما يحبه الله ويرضاه، وكذا السيد رشيد الذي اعتبرها ابنته قبل أن تكون خادمته. أبدت إيطو عن وقار واحترام كبيرين تجاه كل أفراد هذه العائلة، إلا أن تلك المساة كوثر لم تحبها يومًا ولم تقبل وجودها بينهم، فكانت دائمًا ما توبخها وتنعتها بأغلظ الألفاظ في غياب زوجها وأولادها، لكن إيطو كانت تتذكر قول أخيها لها:

- «كوني مطيعة كما ألفتك»

وتقول:

- صبرًا جميلًا يا نفس، فصبر جميل اللهم إليك فوضت أمري.

في إحدى الليالي الممطرة، كانت إيطو تجلس قرب الصغيرين أمام النافذة، مستنيرين بشعاع البرق وصوت الرعد يتسلل إلى مسامع الصغيرين فيفزعهما لتحتضنهما إيطو كما تفعل الدجاجة لصغارها، إنه موعد قص الحكايات قبل الخلود للنوم.

نام الصغيران، فحملت إيطو كليهما إلى فراشه لتتجه إلى الدور السفلي حيث توجد غرفتها، لكنها تفاجأت بصراخ السيدة كوثر وزوجها بقربها في البهو. أسرعت إيطو تجاهها لترى ما خطبها لتتلقى هجومًا شنيعًا من كوثر، انتهى بأن صفعتها على وجهها وطرحتها أرضًا مرددة:

- أرأيتَ يا رشيد كم كنت غبية يومها حين وقيتها شر الشوارع، وأدخلتها منزلنا وأمنتها على أولادنا! ثم التفتت لإيطو قائلة:

- أهكذا تجازيننا وتسدي إلينا معروفًا؟ تسرقين مجوهراتي ونقودي يا منافقة؟! هيا اغربي عن وجهي، لا أريد أن أراك مجددًا هنا.

كانت إيطو تبلغ منزلة الابنة لدى رشيد؛ لهذا كان ينتظر منها ردًّا وتفسيرًا، لكن بصمتها وسكوتها تيقن من أنها حقا الفاعلة، علاوة على ذلك، لن يكذب زوجته ويصدق فتاة استأنفت العمل لديهم بضع شهور مضت.

سقطت البائسة أرضًا من هول الصدمة، ولم تستطع أن تنطق ولو بكلمة لتدافع عن نفسها، إنها بريئة براءة الذئب من دم يوسف، لكن بسكوتها هذا ستزداد الشكوك والملابسات تجاهها، لكنها لا تستطيع. شعرت وكأن لسانها لم يعد مكانه، قد ابتلعته. اكتفت بذرف دموعها كالشلال لا أقل ولا أكثر، فكيف لها أن تسرق وهي أمينة وذات أخلاق ومبادئ؟ كيف لها أن تطعن سيدتها وتضع نفسها بموقف محرج كهذا؟

لم تكن إيطو يومًا ناكرة للخير ولا تغريها الأموال ومتاع الدنيا، إنه جور وطغيان، إنها حيلة من نسج كوثر لإبعادها عنهم؛ فهو حلها الوحيد، ها هي ذي كوثر تشد على كتفها وتطردها؛ فتحت باب المنزل لتدفعها بكل ما آتاها الله من قوة دون رحمة ولا شفقة لتخرج للشارع والأمطار تبللها، وكان هذا آخر كلام عندها قبل أن تغلق عليها الباب وتقول لها:

- الشارع، هنا منبتك وهنا مرجعك.

امتزجت دمعات البريئة بقطرات المطر التي كادت تبللها بالكامل، أخذت تسير وسط الشارع، وحيدة، بائسة، شاردة الذهن لا صوت الرعد يوقظها من غياباتها ولا صوت السيارات القادمة نحوها بسرعة خيالية حرك فيها ساكنًا لتدهسها ويفر صاحبها، ودماء البريئة تسيل تحت رحمة الرحمن.

القصة الثامنة: مخيلة ضمير

تأليف: أحمد حافظ

الدولة: مصر

مخيلة الضمير

حدث يومًا أن عاد صاحبي إلى المنزل متأخرًا على غير العادة، دخل الغرفة حيث كنت وأغلق الباب بسرعة كما يغلق الهارب من الجحيم بابها وراءه. أدار ظهره للباب مستندًا عليه، لم تقع علامات غبطة وسرور على وجه إنسان كالتي رأيتها على وجهه آنذاك، وكاد أن يخلع قميصه ويرقص بكوميدية على الموسيقى، أو لعله فعل ذلك فعلًا، أمسك بقوائمي الأمامية بيديه، حاولت جذبهما، لكنه رفعهما وأخذنا نتمايل كرقص البشر، رفعني وهوى على السرير بي، كان في حالة بريئة من النشوة، صاحبها نوم سريع، عميق، حتى لا يفسد أحد ما فرحته النادرة، حررت نفسي منه ومن فوق السرير قفزت إلى الكرسي دون أن يشعر بأي اختلاف، وحاولت أن أنام، وقبل أن أقفل عيني تأملته، إنها مرات قليلة التي رأيته بها مسرورًا، ومرة واحدة فقط رأيته بهذا الحبور.

بعد ساعة استيقظت وحاجتي للذهاب إلى الخلاء تزداد، أدرت بؤبؤ عيني في الغرفة المظلمة؛ أراها بوضوح، قمت للباب أحاول أن أفتحه، فلم يسفر ذلك سوى عن صوت حفيف لخربشتي، فقصدت صاحبي أسأله، فقلت:

- هلا قمت وفتحت لي الباب أيها الأحمق الموهوم، لكنه لم يسمعني فكررت كلامي بألفاظ أغلظ، وقربت رأسي إلى رأسه فزفرت في أذنه، فأمسكني لما تنبه ورمى بي في الهواء حتى ارتطمت بالدولاب فانزلقت حتى الأرض بفعل الجاذبية وعمدت له مرة أخرى فرُميت إلى الدولاب مرة أخرى وانزلقت إلى الأرض ببطء أكثر، وأثار غضبي أنه قذف بي كما تقذف القطائر فتلتصق بالسقف، وانزلقت إلى الأرض كما الحلزون يمشي متكئًا على سوائله الدبقة، عمدت مرة أخيرة إلى ذات الأذن البشرية فصببت فيها من الشتائم ما لا يستحب ذكرها هنا، فقام مترنحًا حتى وصل للباب ففتحه، ولولا أني وجدت صندوقي معدًّا، والرمال فيه ذهبية جديدة لا شية فيها لكانت سجادة غرفة الطعام متسخة إلى الآن، رجعت إلى الغرفة لأعاود النوم ولم يكن في حسباني أي شيء، لكني حين دخلت راعني أن رأيت صاحبي غارقًا في دمعه، عائدًا إلى ألمه، يكاد أن ينتحب لولا صلابة صمته، كان ممسكًا هاتفه ناظرًا فيه، وكانت عينه مثبته على الشاشة، و الدمع على حدقته المصمتة يتحرك مع تحرك أصابعه فوق الشاشة بعصبية، فهنالك فهمت أن ما أحزن صاحبي اليوم هو ذاته ما أسعده في أمسه، وهو ما جعله يمتنع عن هاتفه حتى لا يأتيه منه ما يسوءه، هذا الفرار الطفولي من الألم متأصل في شخصية كل آدمي؛ فكلما زاد التكالب على السعادة الزائلة كلما زاد الكرب حين زوالها، لكن الإنسان لا يتعلم، فرغم أنهم أكثر الأنام بحثًا عن الحق، إلا أنك ترى أكثرهم يخافون الحقيقة ويتجنبونها ولا يبحثون، ونفوسهم تامة الصفاء، وها هو صاحبي قد غفل عن شيء في نفسه لم يأخذه في الحسبان، ولعل ذلك برهان على فشل الإنسان المحقق في تبيُّن المستقبل رغم معرفته بالمقدمات، ولعلها نائبة أصابته ليتعلم درسًا؛ ألّا يغلق باب الغرفة عليَّ دون أن يترك لي بعضًا من طعامي المجفف.

أشرقت شمس اليوم التالي كما لم تطلع شمس من قبل، ورغم أن ضجيج البشر ذلك اليوم اختفى، إلا أنّني استيقظت على صوت شخص يتحرك جيئة وذهابًا فوق رأسي، كأنها خطوات تبحث عن شيء، تنهدت وتمددت وملأت في بالهواء وأنا أتثاءب، وصاحبي يدور بعصبية بين غرف المنزل، لكنه لم يجد غير المنزل، الكل غادر أو اختفى، وقفنا بالشرفة نبصر الشارع من الطابق الرابع، فلم نر سوى الشارع، لم يغادر الناس المكان بل اختفوا، ترى أين ذهبوا؟ هذا السؤال بالتأكيد سأله صاحبي لنفسه؛ لأنه لا يعلم أنه انتقل إلى عالم آخر ليلة البارحة، ولعله نقلني معه وهو لا يدري لأصبح رفيقه، فأروي ما سيحدث، بدا لي أننا انتقلنا إلى عالم من صنع أحلامه، أو هي رغبته لشيء قد انبرت تخلق واقعًا جديدًا، إن البشر حينما يقابلون واقعًا لا يقبلونه، يتهربون منه وينكرونه، بل ينتقلون للعيش بآخر يحبونه.

ولأنه كان لا يدري من أمره شيئًا، سعى إلى هاتفه أولًا، فاتصل بعدة أرقام بعضها كان مشغولًا عنه وبعضها الآخر لم يحّرر جوابًا، ومع كل اتصال كان فزعه يزداد، ثم هرع إلى التلفاز في الثانية، فلم يجد أيًّا من تلك البرامج التي تذاع على الهواء لساعات طوال، لم يجد سوى تسجيلات معادة للبرامج والأفلام ونشرات الأخبار التي يعاد نشرها بتلقائية، أما الإنترنت فلم يأت بأي جديد، فكأنما نُزع الناس من أماكنهم نزعةً واحدة.

دار بخاطر رفيقي القليل من الأفكار، أهمها أن ينتحر حتى ينقطع عنه الفكر، وقد صارحني بذلك حين كنت جالسًا بقربه، لكنه قرر ألا يستسلم، أودعني بقفصي البلاستيكي ونزلنا الشارع بحثًا عن إنسان، كانت الشمس الجديدة تمد الرصيف بأشعة منيرة سالمة من أي حرً أو سوء، فهي ليست شمسنا العادية ترسل لنا قيظًا وأذى فترة الصيف، بل هي مثالية كما أي شيء هنا في العالم الجديد، السيارات كلها ثابتة على جانبيِ الطريق، بعد أن خلت الأرض تحتها من العلائق والأتربة، سرنا حتى الناصية، كانت أول مرة أرى فيها مدينة أشباح بوَضح النهار.

قال صاحبي في نفسه:

- لو تبقى إنسان لا بد أن يذهب إلى هناك.

فاحتجنا إلى سيارة لنذهب إلى (هناك)، فهمَّ صاحبي يفتح أول سيارة فلم تفتح، والثانية كذلك، كنت أتساءل إن كان يعرف ماهية القيادة، وكيف لا وهذا العالم مثالي، وجدته يلتقط من الأرض آخر قطعة حجر، وضعت هنا لهذا الغرض، فلما تهشم الزجاج الخلفي للسيارة سهُل علينا ركوبها، فكان مقصدنا المركز التجاري الأكبر في المدينة، وكان جُلُّ تفكيره في ملجأ يلبي لنا حاجياتنا من الغذاء والإيواء، علمت حينها لماذا أطفأ صاحبي أنوار البيت قبل أن نغادر، إنه يشعر بأن الطاقة ستنفد لا محالة، وهذه آلية دفاعية عند البشر، فحينما رشّدَ في استهلاك الطاقة أزاح شعوره بالمسؤولية تجاه العالم، كم هو مثالي، كم هو سخيف.

نفد منا الوقود في الطريق، فارتجلنا لدنو المسافة، ووجدنا أحد الأكشاك بالجوار، ولم أكن بعد تناولت طعام الإفطار، فتوقفنا عنده بناءً على طلبي، فوضع لي ما ييسر عليَّ هضمه من أطعمة البشر المغلفة، وقد أملى عليه شعوره بالواجب ألّا يلقي بأيٍّ من

تلك الأغلفة على الأرض، لكن حملها في يده حتى أودعها بسلة مهملات أمام المركز التجاري، ولما دخلنا أخرجت من القفص، ولم يكن لي غير رفيقي نبراسًا في هذا المكان المتسع؛ فلاصقتُه الخطى أينما ذهب.

ومررنا بقسم الأثاث فكانت الأريكة الداكنة مغرية للنوم والاستلقاء، وكسوتها البلاستيكية مازالت جديدة تثَّقف مخلبي كلما مططته فيها، ولم يمر وقت قليل حتى ملأتُ الكسوة ثقوبًا كثيرة، أما صاحبي فلم يستطع إلا أن يخرج عن ثوب الجد أمام هذا المكان اللامتناهي؛ فالرفوف تحوي كل ما يخطر وما لا يخطر على البال، من مأكل ومشرب ومتاع، وارتدى ملابس رياضية مريحة تسهل الحركة وطرح ثوبه الذي أتى به من البيت إلى هنا، فشرع يلهو، وجاءني ومعه فانوس صغير يخرج منه خيطًا من نور مختلفٌ أضواؤهُ، ولم أقاوم وبقعة الضوء على الأرض مشاعة بيننا، فتبعت الخيط وصاحبي ممسك به، فيجري هو، وأنا أجري وراء الخيط، حتى وصل بي التعب منتهاه بينما أحس هو أن العرق لا يجوز أن ينزل في اللهو.

وجدته يسند ظهره للحائط وهو مجالس الأرض، رجع برأسه للخلف ورجع معها الكدر والقلق، كما لو أنه باخعٌ نفسه على قليل الهزل الذي حظينا به في حين أننا نواجه كارثة غير مسبوقة، ضمني إليه وقال بحنان:

- أنتِ آخر من تبقى لي يا صغيرتي.

قلت:

- أنا أتفهم أننا لم نسمع يومًا عن أن إنسانًا قد استيقظ صباحًا فلم يجد غيره، لكن أرجوك، أنا ذكر وأعيش معك منذ أكثر من عام، أنت أحمقٌ لا محالة.

قال:

- كفي عن المواء، هيا بنا.

بعد هنيهة تحولنا راجعين، نظرتُ من بعيد أبحث عن موضعي الأول فوق الأريكة، حيث الثقوب على الكسوة الشفافة، ميزتُ موضعي من بعيد بسهولة، فقد كانت آثار خربشَتي تحظى بمراقبة دقيقة من فتاة بشرية تجلس على الأريكة، منعت الصدمة أيًّا منا عن أن يعبر بكلمة، غير همهمات خرجت عفوية من صاحبي بعد حين، ولما سَمعتها الفتاة حولت نظراتها الفاحصة من فوق آثاري إلينا، فإذا هي نظرات حادة شاخصة، لكنها فزعت فرجعت خطوتين للخلف، فوقفت، فإذا هي فرعاء بيضاء، ميادةٌ لا شرقية ولا غربية، وبدى ذلك على صاحبي بأثر بالغ، ولكن ما أصابه من الدهشة قبل ذلك قد طغى على أي شيء آخر أتى أو سيأتي، ضحكت كثيرًا عندما كان يحاول التقرب منها وهي تتراجع خوفًا من صمته، إلى أن قطع الصمت وقال :

- أخيرًا وجدنا إنسانًا!

قالت متلعثمة:

وهل معك أحد آخر؟

- نعم، ربما، هرتي معي.

ناديت فيها بكلمة ترحاب، فلم تجب، كان رفيقي فزعًا أشد الفزع وهو يتفاوض معها:

- حسنًا، أنا أيضًا لا أعلم كيف حدث هذا، فقط فلنجلس هنا ونتحدث.

كان يشير إلى مقعدين بينهما طاولة من البلاستيك، فجلست هي ويدها المرتعشة تسحب الكرسي، منذ حينها لم يعد هو رفيقي ولا صديقي، بل انصرف عني تمام الانصراف، حتى الفوضى التي سببتها بعدها ببضعة أيام لم يأبه بها، قال:

- مهلًا، سأعود انتظري.

عاد ومعه دفتر من الرف وقلمان، جلس معها ولم يزل اضطرابه إلا عندما تحول ببصره إلى مركز بصرها، تحملقا وتحذلقا، إن الحب العذري عند البشر لمقزز، وجدتهما يغوصان في أعماق بعضهما فلم أكلف بهم ورجعت أنا لأريكتي القريبة؛ لأغفو، ولم أستفق إلا وهو يكتب في الدفتر ويقول:

- هذه هي المهام التي سنقوم بها اليوم.

قاما، فانزوى كل منهما إلى جانب من المكان لتكون له كالغرفة، وحظي كل جانب بسرير مضجعًا، وخزانة مُلئت ثيابًا من كل الألوان، وكان الطعام يومها مطهيًّا على سخان يعمل بالكهرباء، كانت هي من طبخت كل شيء، في حين أنه جلس بجانبي لنتأملها، ولما ميلت نظري إليه وجدته متعلقًا بها، يقال إن الإنسان قد يفقد شخصًا فيشعر أن العالم قد خلا من البشر من بعده، لكنه إذا فقدها فسيكون هذا حقيقيًّا فعلًا، كم هذا رائع.

لم يكن لمراهقة في السابعة عشر أن تتقن الطبخ، فكل ما طُبخ كانت أطعمة نصف جاهزة، غير أن الرائحة أسرعت لتبلغني أنها تطبخ الأطعمة كما أحب، وقد تأكد النبأ حين أكلنا، مرت ثلاثة أيام على ذات الحال وأنا أراقب الحال بينهم وكنت أسأل:

- إلى متى تتأجل اللحظة؟ في الأيام الثلاث الأولى لم يكن بينهم سوى القبول الجبري، غير أن الود قد اشتد من حينه وأخذ موضعه منهما، ولم يقربا بعضهما إلا في حدود الهزل، إلى أن قال:
- إننا آخر اثنين.

كانت مفاجأة متوقعة؛ لأن الضمير البشري مهما كانت صلابته يعتمد على وجود الغير وليس وجود الذات، وها هو شعوره بالمسؤولية تجاه تصرفاته ينسحق أمام مثل تلك اللحظة، وهي أيضًا انسحقت أمام نفسِها لما انفكَّ اللجام، وكانت الأريكة ملائمة،

فأخذتهم عليها أمامي ثلاثة أيام شبقة، في أولها كانت مضطربة مخجولة، وفي ثانيها كانت جائحة جسورة، وفي ثالثها كانت مُحبة عطوفة، هكذا انقضى اليوم السادس دون أن أفهم كيف استحالت اللذة عند البشر إلى ما يسمونه حبًّا، لو رأى الخراب الذي حل بقسم أطعمة الحيوانات، والأكل المجفف المتجمع تحت العلب الممزقة، لما تلاهى عني مع هذه الفتاة الآدمية، ولما فرغوا في اليوم السابع من عملهم الذي عملوه، جلسوا فاستراحوا، جلسا في عراء الباحة أمام باب المركز، لفح وجهه الشعر الطويل الآتي من شرقه، قالت باسمة:

- إذن، هلا أخبرتني مرة أخرى ماذا كان اسمك؟
- أي شيء، لن يفرق، لم تعد للأسماء أهمية الآن، أتعرفين؟ أعتقد أنني قد عرفتك قبل الآن.
- تعتقد؟ أيشاء الله أن يفنى البشر أجمع إلا اثنين، فيجتمعا صدفة، فيقول أحدهم للآخر إنه يشعر كما لو أنه التقى به من قبل؟
- لا أدري يا ريم، لكنني لا أشعر أنها صدفة، فأنتِ مناسبة جدًّ لي.
- أنت لم تتغير! لازلت لا تفكر إلا في نفسك.
- وفي ماذا عليَّ أن أفكر؟
- لا عليك يا أيمن.

توقف الحوار وكلاهما يشعر بشيء من الاستفزاز، ثم دار آخر، فكانا يتسألان عن المستقبل، وكان جُلّ تفكيره عن الغذاء، قال:

- لنزرع بعض الأشجار.
- وما الحاجة وعندنا طعام يكفينا طوال النهار وكل الأيام.
- كُل الطعام سيفسد بعد عام أو بعض عام، والأعقل أن نستعد للقادم.

بدا كلامه منطقيًّا، فقد كان أمام المركز سجادة ممتدة من اللون الأخضر، لا ينقصها إلا غرس بعض الشجيرات حتى يتم جمالها، وصحيح أنني لا أميز الألوان، لكن الحوار تطرق إلى حال أخرى، فقالت شيئًا غريبًا:

- متى ننجب أطفالًا؟
- ما الحاجة للهم ونحن أبناء اليوم وكل يوم، لقد وهبتنا الحياة بضعة أعوام سعيدة، فلِمَ العجلة في إفسادها؟
- إنه واجب علينا؛ أن نعيد البشرية من جديد، فنكون حواء وآدم مرة أخرى.

- الواجب! لقد عشت كل أيامي السابقة وأنا أتحرى المسؤولية في أفعالي تجاه الآخرين، وأنتِ تريدين مني أن أضحي مرة أخرى من أجل أشخاص لم يُوجدوا بعد.

- إنك لا تشعر بالمسؤولية تجاه الآخرين لأنك قوي، بل لأنك ضعيف أمامهم فتسعى لخدمتهم لأنك تخشى ألا يتقبلوك.

- لماذا تتحدثين معي هكذا؟ من أنتِ؟!

- أنا ضميرك.

تركها وقام غاضبًا، ولم تُحرك هي ساكنًا، فعمدت إلى جوارها فإذا هي تحملني إليها، نظرتُ إلى الوجه البشري الماثل، وكان يغطيه زجاجتان دائريتان تحتهما شيء من كلف، فقلت لها:

- مياو.

- ليس عليك أن تتحدث هكذا.

- وهل ستفهم آدمية مثلك حين أتحدث هكذا؟

- نعم، فما أنا إلا فرصة أخرى أتيحت لرفيقيك، وها هو قد فرط فيها.

- لا تقولي رفيقي، وهل كان له فرصة أولى؟

- كنت أنا أيضًا الفرصة الأولى، وحين خسرها حَزِن، وشعرت بالذنب حياله، فرجعتُ له مرة ثانية، لكنه كما ترى فشل مرة ثانية.

- لكن هذا العالم كله، أليس من صُنع مخيلته؟

- بل من صنع مخيلتي، وقد أنسيته ما عرفه عني في حياته السابقة، وهو لا يعرف أي شيء عن هذا العالم.

- ظننت أنه صنع هذه الحياة تحقيقًا لأحلامه.

- ليس هناك سوى حلم واحد، وهو رغبتي في أن أكفي نفسي ألم الشك ليس إلا.

- مهلًا مهلًا، عن أي ألم تتحدثين؟

- لقد كنت أعرف أيمنَ في السابق، لكننا لسبب ما لا أذكره هنا تفرقنا، وعندما وجدته قد حزن وندم خلقت هذا العالم لأمتحن صدقه.

- ولكن ماذا عني؟

- أنت أيضاً من تخيلي، فقد حكى لي أيمن عنك سابقًا، وقد اخترتك لتؤنسه هذه المدة، ألم تلحظ أن الشعر لا يتساقط منك كما العادة، أنت هنا ذكي، نضر، مضحك؛ هذا لأني تخيلتك على صورة حسنة، أما هو فأبقيته على صورته الأولى، والحق أنني أشعر أني ظلمته حينما أعطيت صورته عندي فرصة ثانية، بدلًا من أن أعطيه هو بذاته.

- لستِ إلا واهمة، فأنتِ تفعلين ذلك إراحة لضميرك وتكفيرًا لذنبك.

- على أي حال، هذه المدة على وشك الانقضاء، فقد أتممت ما جئت لأجله، وسوف أرحل الآن، فهل تريد المجيء معي؟

لم أجد بدًّا من الموافقة، فقلت:

- لنرحل، فحملتني ومشينا في رحلة إلى حيوات أخرى.

النهاية

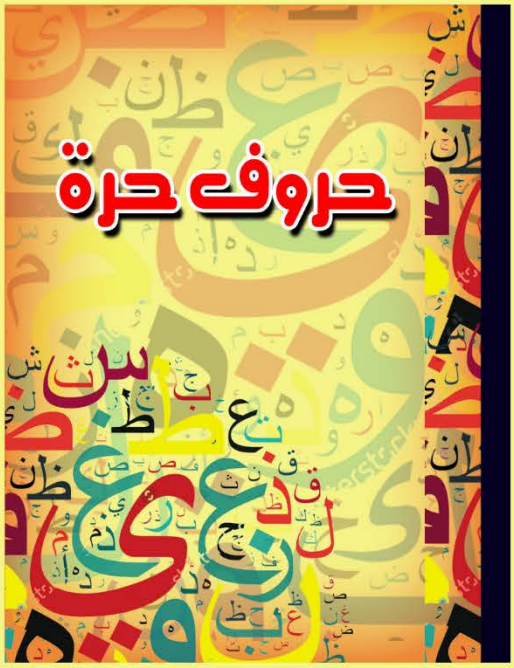

يمثل هذا الكتاب أحد أهم مخرجات مسابقة حروف حرة لكتابة القصة القصيرة والموجهة للمؤلفين الجدد في مختلف الفئات العمرية -التي نظمتها مبادرة ض في عام 2020. حيث شارك في المسابقة المئات من المؤلفين الجدد من داخل وخارج الوطن العربي، ويحوي الكتاب القصص التي حصلت على أعلى علامات لجنة التحكيم المختصة.

تهدف مبادرة ض بهذا الإصدار إلى تشجيع المؤلفين الجدد وتعريف جمهور القراء العربي بهم، وتتيح الرخصة القانونية التي وضعتها المبادرة للقراء الاستفادة من الكتاب المتنوع ونشره للأغراض غير التجارية، حيث تبقى الحقوق التجارية ملكا للمؤلفين أنفسهم.

«قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته ... مصطفى محمود»

CC BY NC ND